(فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب)

المنار

١٣١٥

(يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب)

قال عليه الصلاة والسلام: ان للاسلام صوى و «منارا» كمنار الطريق

﴿مصر – رجب الحرام سنة ١٣٢٤ – أول ٢٣ أغسطس (آب) سنة ١٩٠٦﴾

باب تفسير القرآن الحكيم

(مقتبس من الدروس التي كان يلقيها في الازهر الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

(٢٢٤) لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ •

جعل بعض المفسرين قوله تعالى ﴿ لله ما في السموات وما في الارض ﴾ بمثابة الدليل على ما قبله وقال الاستاذ الامام الآية متصلة بقوله تعالى (ومن يكتمها فانه آثم قلبه والله بكل شيء عليم) ويصح ان تكون متممة لها لأن مقتضى كونه عليما بكل شيء أن له كل شيء فهذا كالدليل على كونه عالما بكل شيء أي أنه عليم به لأنه له وهو خالقه فهو كقوله (ألا يعلم من خلق) وبهذا الاستدلال يتقرر النهي عن كتم الشهادة وكونه إنما يعاقب عليه وأكده بقوله ﴿ وان تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ﴾ لدخول كتمان الشهادة في عموم ما في النفس (قال) ويصح ان تكون الآية متصلة بآية الدين من أولها لأنه شرع

لنا أحكاماً تتعلق بالدين كالكتابة والشهادة فكأنه يقول ان تساهلتم في هذه الاحكام وأضعتم الحقوق فتظاهرتم بالأمانة مع انطواء النفس على الخيانة وغالطتم الناس وأكلتم أموالهم بذلك أو أضعتموها بكتمان الشهادة ونحو ذلك فان الله يحاسبكم ويعاقبكم على ذلك لأن له ما في السموات وما في الارض ومنها أنتم وأعمالكم النفسية والبدنية: أقول وجعلها بعضهم متعلقة بأحكام السورة كلها

(قال) والمراد بقوله «ما في أنفسكم» الاشياء الثابتة في أنفسكم وتصدر عنها أعمالكم كالحقد والحسد وألفة المنكرات التي يترتب عليها ترك النهي عن المنكر فإن السكوت عن النهي أمر كبير يحل الله عقوبته في الامة بسببه وليس هو مجرد اتفاق السكوت وانما هو باعتبار سببه في النفس وهو ألفة المنكر والانس به وللانسان عمل اختياري في نفسه هو الذي يحاسب عليه نعم ان الخواطر والهواجس قد تأتي بغير ارادة الانسان ولا يكون له فيها تعمل ولكنه اذا مضى معها واسترسل فيها تحسب عليه عملا يجازى عليه لانه جاءها مختارا وكان يقدر على مطاردتها وجهادها سواء كانت هذه الخواطر والهواجس صادرة عن ملكة في النفس تثيرها أو عن شيء لا يدخل في حيز الملكة مثال ذلك المحسود تبعث ملكة الحسد في نفسه خواطر الانتقام من المحسود والسعي في ازالة نعمته تمكنها في نفسه وامتلاكها لمنازع فكره وهذه الخواطر مما يحاسب عليها ابداها أو اخفاها الا ان يجاهدها ويدافعها فذلك ما يكافئه · ومثال اثاني المظلوم يذكر ظالمه فيشتغل فكره في دفع ظلمه والهرب من أذاه وربما استرسل مع خواطره إلى ان تجره الى تدبير الحيل للايقاع به ومقابلة ظلمه بما هو شر منه فيكون مؤاخذا عليها أبداها أو أخفاها وقد قال تعالى (لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه) وذلك أن فظاعة المنكرات من نفوسهم بالأنس بها من أول الامر · وهكذا يقال في كل أعمال القلب التي أمرنا الشرع بمجاهدتها · ولا يدخل في هذا ما يمر في النفس من الخواطر والوساوس كما قيل وبنوا عليه ان الصحابة رضي الله عنهم شق عليهم العمل بالآية وشكوا للنبي صلى الله عليه وسلم الوسوسة فنزلت الآية

التي بعدها دفعا للحرج . ولفظ الآية يدفع هـذا لانها نص فيما هو ثابت في النفس ومتمكن منها كالاخلاق والملكات والعزائم القوية التي يترتب عليها العمل بأثرها فيها اذا انتفت الموانع وتركت المجاهدة وكذلك يدفعه ما كان عليه الصحابة الكرام من علو الهمة والاخذ بالعزائم وهم الذين كانوا يفهمون القرآن حق الفهم ويتأدبون به ويقيمونه كما يجب وما أبعدهم عن الاسترسال مع الوساوس والاوهام

هذا ماقاله الاستاذ الامام مفصلا وهو المتبادر من لفظ الآية ولا شك أن ما يجازى عليه مما في النفس يعم الملكات الفاضلة والمقاصد الشريفة وانما مثل هو وغيره بالحقد والحسد لمناسبة السياق ولهذا السياق خصه بعضهم بكتمان الشهادة وهو مروي عن ابن عباس وعكرمة والشعبي ومجاهد ورد ذلك الاكثرون بأنه مخالف لعموم اللفظ وخصه بعضهم بالكفار وهو تخصيص بلا مخصص أيضا وذهب الجمهور الى أن الآية منسوخة بما بعدها . أخرج أحمد ومسلم وأبو داود في ناسخه وغيرهم عن أبي هريرة قال لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم (لله ما في السموات وما في الارض وان تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتوا رسول الله (ص) ثم جثوا على الركب فقالوا يارسول الله كلفنا من الاعمال ما نطيق الصلاة والصيام والجهاد والصدقة وقد أنزل الله هـذه الآية ولا نطيقها فقال رسول الله (ص) «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب من قبلكم سمعنا وعصينا بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير» فلما اقترأها القوم وذلت بها ألسنتهم أنزل الله في أثرها (آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون) الآية فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى فأنزل (لا يكلف الله نفسا الا وسعها) الى آخرها . وأخرج أحمد ومسلم والترمذي والنسائي من حديث ابن عباس نحوه . وأخرج البخاري والبيهقي عن مروان الاصفر عن رجل من الصحابة أحسبه ابن عمر «وان تبدوا ما في أنفسكم» الآية قال نسخها ما بعدها . واحتجوا للنسخ بحديث أبي هريرة في الصحيحين والسنن «ان الله تجاوز لي عن أمتي ما حدثت به أنفسها مالم تتكلم أو تعمل به»

وأقول ليس في هذه الروايات ان النبي صلى الله عليه وسلم صرح أن الآية

منسوخة وانما قصاراها ان بعض الصحابة فهم أنها نسخت والروايات عنهم في ذلك مختلفة والقول بالنسخ ممنوع من وجوه (أحدها) ان قوله تعالى (يحاسبكم به الله) خبر والاخبار لاتنسخ كما هو معروف في علم الأصول

(ثانيها) ان كسب القلب وعمله مما دل الكتاب والسنة والاجماع والقياس على ثبوته والجزاء عليه ظهر أثره على الجوارح أم لم يظهر وهو مادلت عليه الآية فالقول بنسخها إبطال للشريعة ونسخ للدين كله أو اثبات لكونه دينا جثمانيا ماديا لاحظ للارواح والقلوب منه — قال تعالى (٢ : ٢٢٥ لايؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم) وقال (١٧ : ٣٦ ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا) وقال (٢٤ : ١٩ ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لاتعلمون) والحب من أعمال القلب الثابتة في النفس . فقوله تعالى (ما في أنفسكم) معناه ما ثبت واستقر في أنفسكم كما تقدم ويدخل فيه الكفر والاخلاق الراسخة والصفات الثابتة كالحسد والبغض في الله وكتمان الشهادة وقصد السوء أو سوء القصد وفساد النية وخبث السريرة وهذه الأعمال والصفات هي الاصل في الشقاوة وعليها مدار الحساب والجزاء ولولا أن للأعمال البدنية آثارا في النفس تزكيها أو تدسيها، لما آخذ الله تعالى في الآخرة أحدا عليها ، لانه تعالى لايعاقب الناس حبا في الانتقام ولا يظلم نفسا شيأ ولكنه جعل سنته في الانسان أن يرقى أو يتسفل نفسا وعقلا بالعمل فلهذا كان العمل مجزيا عليه في الآخرة فان أثره في النفس هو متعلق الجزاء

(ثالثها) ان الخواطر السانحة والوساوس العارضة وحديث النفس الذي لايصل الى درجة القصد الثابت والعزم الراسخ لايدخل في مفهوم الآية كما قال المحققون واختاره الاستاذ الامام كما تقدم لان ماذكر غير ثابت ولا مستقر وقوله « في أنفسكم » يفيد الثبات والاستقرار . وانما كان هذا وجها لابطال النسخ لانه اذا ثبت ان ماذكر داخل في الآية فلقائل ان يقول ان الآية خبر يفيد النهي عن هذه الخواطر والوساوس في المعنى فهو من تكليف مالا يطاق فيجب ان يكون

قوله بعده (لا يكلف الله نفساً الا وسعها) ناسخاً له وبهذا تعلم ان حديث التجاوز عن حديث النفس لا ينافي الآية ولا يصلح دعامة للقول بنسخها

(رابعها) ان تكليف ماليس في الوسع ينافي الحكمة الالهية البالغة ، والرحمة الربانية السابغة ، فهو لم يقع فيقال ان الآية منه ونسخت بما بعده

(خامسها) المعقول في النسخ أن يشرع حكم يوافق مصلحة المكلفين ثم يأتي زمن او تطرأ حال يكون ذلك الحكم فيه مخالفاً للمصلحة وكون ما في النفس يحاسب عليه من الحقائق التي لا تختلف باختلاف الأزمنة والاحوال

فان قيل اذا كان معنى الآية ما ذكرت فلماذا قال الصحابة فيها ما قالوا أقول ان الصحابة عليهم الرضوان قد دخلوا في الاسلام وأكثرهم رجال تمد ثر بواقي حجر الجاهلية وانطبعت في نفوسهم قبله أخلاقها وأثرت في قلوبهم عاداتها فكانوا يتركون منها ويتطهرون من لوثها تدريجاً بزيادة الايمان ، كما نزل شيء من القرآن ، وباتباع الرسول ، فلما نزلت هذه الآية عليهم خافوا أن يؤاخذوا على ما كان لا يزال باقياً في أنفسهم من آثار التربية الجاهلية الاولى وناهيك بما كانوا عليه من الخوف من الله عز وجل واعتقاد النقص في أنفسهم حتى بعد كمال التزكية وتمام الطهارة حتى كان مثل عمر بن الخطاب يسأل حذيفة بن اليمان هل يجد فيه شيئاً من علامات النفاق فأخبرهم الله تعالى بأنه لا يكلف نفساً الا وسعها ولا يؤاخذها الا على ما كلفها فهم مكلفون بتزكية أنفسهم ومجاهدتها بقدر الاستطاعة والطاقة وطلب العفو عما لا طاقة لهم به كما سيأتي تفصيله ولا يبعد ان يكون بعضهم قد خاف ان تدخل الوسوسة والشبهة قبل التمكن من دفعها في عموم الآية فكان ما بعدها مبيناً لغلطهم في ذلك . وأما تسمية بعضهم ذلك نسخاً فقد أجاب عنه بعض المفسرين بأنه عبر بالنسخ عن البيان والايضاح تجوزاً ولك ان تقول ان المراد به النسخ اللغوي وهو الازالة والتحويل لا الاصطلاحي أي ان الآية الثانية كانت مزيلة لما أخذ فهم من الاولى أو محولة له الى وجه آخر و يحتمل أن يكون الصحابي لم ينطق بلفظ النسخ وانما فهمه الراوي من القصة فذكره وكثيراً ما يردون الاحاديث المرفوعة بالمعنى . على أنه ليس من النص المرفوع ورأي الصحابي ليس بحجة

عند الجماهير لاسيما اذا خالف ظاهر الكتاب . واني لا أعتقد صحة سند حديث ولا قول عالم صحابي يخالف ظاهر القرآن وان وثقوا رجاله فرب راو يوثق للاغترار بظاهر حاله وهو سيء الباطن ولو انتقدت الروايات من جهة فحوى متنها كما تنتقد من جهة سندها لقضت المتون على كثير من الاسانيد بالنقض وقد قالوا ان من علامة الحديث الموضوع مخالفته لظاهر القرآن أو القواعد المقررة في الشريعة أو لبرهان العقل أو للحس والعيان وسائر اليقينيات .

أما ابداء ما في النفس فهو اظهاره بالقول أو بالفعل وأما اخفاؤه فهو ضده والابداء والاخفاء سيان عند الله تعالى لانه (يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور) فالمدار في مرضاته على تزكية النفس وطهارة السريرة لا على لوك اللسان وحركات الأبدان . وأما المحاسبة فهي على ظاهرها والتغيير عنها بالعلم بعض بالجزاء الذي هو غايتها ولازمها ذلك ان للنفوس في اعتقاداتها وملكاتها وعزائمها وارادتها موازين يعرف بها [illegible] والباطل والشر هي أدق مما وضع البشر من موازين الأعيان وموازين الأعراض كالحر والبرد (٢١:٤٧ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) وسيأتي قول الاستاذ الامام في الحساب والجزاء

﴿ فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ﴾ أي فهو بماله من الملك المطلق يغفر لمن يشاء ان يغفر له ويعذب من يشاء عذابه وقرأ غير ابن عامر وعاصم ويعقوب بجزم يغفر ويعذب بالعطف على يحاسبكم وانما يشاء ما فيه الرحمة ، والعدل والحكمة ، والاصل في العدل أن يكون الجزاء السيء على قدر الاساءة وتأثيرها في تدسية نفوس المسيئين والجزاء الحسن على قدر الاحسان وتأثيره في أرواح المحسنين ولكنه تعالى برحمته وفضله يضاعف جزاء الحسنة عشرة اضعاف ويزيد من يشاء ولا يضاعف السيئة ، والآيات المفصلة في هذا المعنى كثيرة وبها يفسر المجمل وقد بينا معنى المغفرة غير مرة بايضاح وحسبك هنا ان تعلم ان الذنب المغفور هو الذي يوفق الله صاحبه لعمل صالح يغلب أثره في النفس . والجاهل بهدي الكتاب يحسب ان الامر فوضى والكيل جزاف ويمني نفسه بالمغفرة على اصراره ، واقامته

على أوزارهم ألم يقرأ في دعاء الملائكة للمؤمنين (٤٠: ٦ ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ٧ وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم) وقال الاستاذ الامام: شأن الله تعالى في المحاسبة ان يذكر الانسان أو يسأله لم فعلت فبعد ان يري العبد أعماله الظاهرة والباطنة يغفر او يعذب فمن الناس من لم تصل أعماله المنكرة الى ان تكون ملكات له فالله سبحانه يغفرها له ومنهم من تكون ملكات له فهو يعاقبه عليها وهو يفعل ما يشاء و يختار. وقد يظن من لا يؤمن بالكتاب كله أن في هذا سبيلا للمروق من التكاليف لأن أمر المغفرة والتعذيب موكول للمشيئة والرجاء فيها كبير وهذا ضلال عن فهم الكتاب بالمرة فالآية انذار وتخويف ليس فيها موضع للتطلع بمغفرة ذنب ما وان كان صغيرا. أقول وقد ذكرني قوله بكلمة لأبي الحسن الشاذلي قال: وقد ابهمت الامر علينا نرجو ونخاف فأمن خوفنا ولا تخيب رجاءنا وهذا من أحسن الدعاء

وقد قرر ما ذكر من تعلق الأمر بالمشيئة وأيد ذلك بقوله (والله على كل شيء قدير) اي فهو بقدرته ينفذ ما تعلقت به مشيئته من الاثابة والتوفيق، والهداية لاقوم طريق

قيل ان الآيتين متصلتان بما قبلهما لما فيه من ذكر كمال الالوهية الذي يقابله من كمال الايمان والدعاء ما يناسبه أو لما فيه من ذكر الحساب والتمرد الخفايا المقتضي للايمان والدعاء وقيل انه لما افتتحت هذه السورة ببيان كون القرآن لاريب فيه وكونه هدى للمتقين وذكر صفات هؤلاء المتقين وأصول الايمان التي أخذوا بها وخبر سائر الناس من الكافرين والمرتابين ثم ذكر فيها كثير من الاحكام ومحاجة من لم يهتد به من بعض الامم ناسب بعد هذا كله ختم السورة بالشهادة للمؤمنين مع النبي صلى الله عليه وسلم بالايمان وهم المهتدون تمام الاهتداء ولقنهم من الدعاء ما ستعلم حكمته وهذا الوجه هو الذي اختاره الاستاذ الامام قال تعالى

(٢٨٥) آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ، كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا

سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٦) لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ، رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ، رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ٭

﴿آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون﴾ أي صدق الرسول بما أنزل اليه في هذه السورة وغيرها من العقائد والاحكام والسنن والبينات والهدى تصديق اذعان واطمئنان وكذلك المؤمنون من أصحابه (عليهم الرضوان) وقد شهد لهم بهذا الايمان أثره في نفوسهم الزكية وهممهم العالية وأعمالهم المرضية والله اكبر شهادة. وقد اعترف كثيرون من علماء الافرنج الباحثين في شؤون المسلمين وعلومهم وسائر شؤون أمم الشرق بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان على اعتقاد جازم بأنه مرسل من الله وموحى اليه وكانوا من قبل متفقين على انه ادعى الوحي لانه رآه أقرب الطرق لنشر حكمته والاقناع علته وهو غير معتقد به ﴿كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله﴾ وقرأ حمزة وكتابه أي كل منهم آمن بوجود الله ووحدانيته وتنزيهه وكمال صفاته وحكمته وسننه في خلقه ، وبوجود الملائكة الذين هم السفراء بين الله وبين الرسل من البشر ينزلون بالوحي على قلوب الانبياء. قال المفسرون ليس المراد بالايمان بالملائكة الايمان بذواتهم بل الايمان بسفارتهم في الوحي كما يفهم من النظم والترتيب ولذلك عطف عليهم الايمان بحقية كتبه وصدق رسله. لكن ما يفيده الترتيب والنظم من ارادة الايمان بالملائكة من حيث هم حملة الوحي الى الرسل لا ينافي ملاحظة الايمان بهم من حيث هم من عالم الغيب بل يستلزمه. وأما البحث عن ذواتهم ما هي وعن صفاتهم وأعمالهم كيف هي فهو مما لم يأذن به الله في دينه. والمراد بالايمان بالكتب والرسل جنسها أي يؤمنون بذلك ايمانا اجماليا فيما أجمله القرآن وتفصيليا فيما فصله لا يزيدون على ذلك شيأ ويقولون ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾

قرأ يعقوب وأبو عمرو في رواية عنه «لا يفرق» وهو يعود على لفظ كل وذكر المقول مع حذف القول كثير في الكلام البليغ وله مواضع في الكتاب لا يقف الفهم في شيء منها قال الاستاذ الامام والمعنى ان من شأن المؤمنين ان يقولوا هذا معتقدين أنهم في الرسالة والتشريع سواء، كثر قوم الرسول منهم أم قلوا وكثرت الاحكام المنزلة عليه أم قلت وتقدمت البعثة أم تأخرت وهذا لا يناقض قوله تعالى (٢٥٣ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض) فان التفضيل ليس في أصل الرسالة والوحي كما تقدم في تفسير الآية · أقول وفي هذا مزية للمؤمنين من هذه الامة على غيرهم من أهل الكتاب الذين يفرقون بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض كأنهم لم يعقلوا معنى الرسالة في نفسها اذ لو عقلوها لما فرقوا بين من أوتوها وقد رأيت غير واحد من أذكياء النصارى يدرك هذه المزية

آمنوا بما ذكر قائلين بعدم التفريق (وقالوا سمعنا وأطعنا) أي فهمنا ما سمعنا القول سماع وعي وفهم وأطعنا ما أمرنا به فيه طاعة إذعان وانقياد · قال الاستاذ الامام في الدرس وقد بينا لكم مرارا الفرق بين إيمان الاذعان وبين ما يسميه الانسان ايمانا واعتقادا لانه نشأ عليه وقبله بالتقليد ولم يسمع له ناقضا فمثل هذا ليس اعتقادا حقيقيا وقلما ينشأ عنه عمل لانه تقليد يقاومه في العقل نقيضه والاذعان ينبه النفس دائما الى ما تذعن له ويبعثها دائما الى العمل به الا اذا عرض ما لا يسلم منه المرء من الموانع، ولهذا عطف أطعنا على سمعنا · ولما كان العامل المذعن المخلص يراقب قلبه ويحاسب نفسه على التقصير الذي تأتي به العوارض الطارئة ويلومها على ما دون الكمال من الاعمال كان من شأن المؤمنين أن يقولوا مع السمع والطاعة (غفرانك ربنا واليك المصير) أي يسألونه تعالى ان يغفر لهم ما عساه يطرأ على أنفسهم فيعوقها عن الرقي في معارج الكمال الذي دعاها اليه الايمان · والغفران كالمغفرة الستر وستر الذنب يكون بعدم الفضيحة عليه في الدنيا وترك الجزاء عليه في الآخرة وانما يطلب هذا بالتوبة واتباع السيئة الحسنة مع الدعاء الذي يزيد في الايمان وبذلك يمحى أثر الذنوب من النفس في الدنيا فيرجى ان تصير اليه تعالى في الآخرة نقية زكية لأن هذا المصير اليه وحده هو الذي يكون وراءه الجزاء

بحسب درجات النفوس في معارج الكمال

﴿ لا يكلف الله نفسا الا وسعها ﴾ ولا يحاسبها الا على ما كلفها والتكليف هو الالزام بما فيه كلفة والوسع ما تسعه قدرة الانسان من غير حرج ولا عسر وقال بعضهم هو ما يسهل عليه من الامور المقدور عليها وهو ما دون مدى طاقته . والمعنى ان شأنه تعالى وسنته في شرع الدين ان لا يكلف عباده ما لا يطيقون . قال المفسرون ان الآية تدل على عدم وقوع تكليف ما لا يطاق لا على عدم جوازه ولكن هذا لا يلتئم من قولهم ان الكلام في شأنه وسنته تعالى في التكليف وسيأتي تتمة هذا البحث قريبا . واذا كان هذا التكليف لم يقع كما قالوا امتنع ان تكون الآية ناسخة لما قبلها لانه لا يتضمن تكليف ما ليس في الوسع كما تقدم ولا لقوله تعالى (٣ : ١٠٢ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته) كما قيل . وفي الجملة وجهان قيل هي ابتداء خبر من الله تعالى كأنه بشارة بغفران ما طلبوا غفرانه من التقصير، وتيسير ما قد يتشتم من الآية السابقة من التعسير، وقيل انها داخلة في قول المؤمنين فهم بعد سؤال الغفران قد أذنوا بأن يصفوا الله تعالى بما ذكر ويقرعوا من الله الحكمة في سياستهم

﴿ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ قيل ان الكسب والاكتساب واحد في اللغة نقل عن الواحدي وقيل ان الاكتساب أخص واختلفوا في توجيهه واختار الاستاذ الامام في الدرس ما قاله الزمخشري وقال انه الصواب وهو ان الفرق بينهما كالفرق بين عمل واعتمل فكل منها كتسب واعتمل يفيد الاختراع والتكلف فالآية تشير أو تدل على ان فطرة الانسان مجبولة على الخير وانه يتعود الشر بالتكلف والتأسي والمعنى ان لها ثواب ما كسبت من الخير وعليها عقاب ما اكتسبت من الشر . وقد اختلف الناس في الانسان هل هو خير بالطبع أو شرير بالطبع والى أي الامرين يكون أميل بفطرته مع صرف النظر عما يتفق له في تربيته . المسألة مشهورة وقد قال الاستاذ الامام لا شك ان الميل الى الخير مما أودع في طبع الانسان والخير كل ما فيه نفع نفسك ونفع الناس وجماع ذلك كله ان تحب لاخيك ما تحب لنفسك كما ورد في الحديث (١) والانسان يفعل الخير بطبعه وتكون فيه لذته ويميل الى عبادة الله

(١) رواية الشيخين والترمذي والنسائي «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه»

تعالى لان شكر المنعم مغروس في الطبع ويظهر أثره في كل انسان وأدله البشاشة والارتياح للمنعم ولا يحتاج الانسان الى تكلف في فعل الخير لانه يعلم ان كل أحد يرتاح اليه ويراه بعين الرضى . وأما الشر فانه يعرض للنفس بأسباب ليست من طبيعتها ولا مقتضى فطرتها ومهما كان الانسان شريرا فانه لا يخفى عليه ان الشر ممقوت في نظر الناس وصاحبه مهين عندهم فان الطفل ينشأ على الصدق حتى يسمع الكذب من الناس فيتعلمه واذا رأى اعجاب الناس بكلام من يصف شيئاً يزيد فيه ويبالغ كاذبا استحب الكذب وافتراه لينال الحظوة عند الناس ويحظى باعجابهم وهو مع ذلك لا ينفك يشعر بقبحه حتى اذا دُبّر أمامه أحد بلقب الكاذب أو الكذاب أحس بمهانة نفسه وخزيها . وهكذا شأن الانسان عند اقتراف كل شر يشعر في نفسه بقبحه ويجد من أعماق سريرته هاتفا يقول له لا تفعل ويحاسبه بعد الفعل ويوبخه الا في النادر ومن النادر ان يصير الانسان شراً محضاً — يريد انه قلما يألف أحد الشر ويطمئن به [illegible] لانه طبيعة لا تشعر نفسه بقبحه عند الشروع فيه ولا في أثنائه ولا بعد الفراغ منه حتى [illegible] انه لا يوجد في المليون من الناس شرير واحد يفعل الشر وهو لا يشعر بانه شر قبيح في نفسه والذين ذهبوا الى ان الانسان شرير بالطبع أرادوا من الطبع ما يرون عليه غالب الناس ولم يلاحظوا فيه معنى الغريزة ومناشيء العمل من الفطرة . ذلك أن الانسان ينشأ بين منازعات الكون وفواعل الطبيعة وأحيائها ومغالبة أبناء جنسه على المنافع والمرافق وقد يدفعه هذا الجهاد الى الاثرة وتوفير الخير لنفسه خاصة ويلجئه الظلم الى الظالم فيأتيه متعلما اياه تعلما متكلفا له تكلفا وفي نفسه ذلك الهاتف الفطري يقول له لا تفعل وهو النبراس الالهي الذي لا ينطفىء . فاذا رجع الانسان الى أصل فطرته لا يرى الا الخير ولا يميل الا اليه واذا تأمل في الشر الذي يعرض له لم يخف عليه انه ليس من أصل الفطرة وانما هو من الطوارىء التي تعرض عليها لاسيما من ينشأ بين قوم فسدت فطرتهم وأشد ما يضر الانسان في ذلك نظره الى حال غيره وانك أمرنا في الحديث ان ننظر في شؤون الدنيا الى من دوننا وهذا الامر خاص بالأفراد بعضهم مع بعض فان نظر الواحد الى من دونه يجعله راضيا بما

أو به من الثم بعيدا عن الحسد الذي هو منبع الشرور وأما الامم فينبغي ان ننظر في حال من فوقنا منها لاجل مباراتها ومساماتها ·

هذا ماقاله الامام في هذه المسألة بايضاح ومنه يعلم وجه قوله تعالى في الخير كسبت وفي الشر اكتسبت وكان رحمه الله تعالى يرى أن أحق مايتعجب له من حال الانسان كثرة عمل الشر وقلة عمل الخير ويعلل ذلك بأن عمل الخير سهل وعاقبته حميدة وعمل الشر عسر ومغبته ذميمة ولاعجب في تعجبه فقد كان مجبولا من طينة الخير سليم الفطرة من عوارض الشر حتى لم تؤثر في نفسه الزكية الشرور التي كانت تحيط به من أول نشأته الى يوم وفاته قدس الله روحه ورضي الله عنه ،

والمسألة تحتاج الى زيادة في البسط لكثرة اشتباه الناس فيها ولشد ما عارضنا في تقريرها الطلاب في الدرس والباحثون في المحاضرات وإن سألتهم ماهو الشر الفطري في البشر يقولون حب الشهوات والغضب وما ينشأ عنها من الاعمال والاخلاق ولولا هاتان الغريزتان لما [illegible] نفعا ولا دفع ضرا ولما ظهر من أعمال الانسان ما نرى من آثار الطبيعة ومحاسن الخليقة بل لولاهما لبادت الافراد وانقرض النوع من الارض · وفي الفطرة والدين المرشد الى كمالها مايكفي لاقامة الميزان القسط فيهما غالبا حتى لا يغلب في الامة تفريط ولا افراط ويكون الخير أصلا عاما والشر عرضا مفارقا · والاصل الذي لا ينازع فيه أحد ان الانسان قد جبل على ان لا يعمل عملا الا اذا اعتقد أنه نافع وأن فعله خير له من تركه وذلك شأنه في الترك أيضا وان هداياته الاربع — الحس والوجدان والعقل والدين — كافية لأن يعتقد ان كل خير نافع وكل شر ضار فاذا قصر في الاهتداء بهذه الهدايات فوقع في الشر كان وقوعه فيه أثرا لتنكب طريق الفطرة لا للسير على جادتها وأكثر أعمال الناس نافعة لهم غير ضارة بغيرهم · ومن التفصيل في المسألة ماتقدم من القول في كذب الاطفال ومنه ماسئلنا عنه في الدرس ومجالس البحث من الميل الى الزنا مثلا وأجبنا بأن الانسان لا يميل بفطرته الى الزنا وانما يميل الى الوقاع وهذا من الخير وأصول الكمال في الفطرة وانما الزنا وضع له في غير موضعه وذلك من العوارض الطارئة التي تكثر بترك مقومات الفطرة وحوافظها من تقدير الدين وقضايا

العقل وآداب الاجتماع ولقد كنت قبل الوقوف على أحوال الناس لاسيما في بلاد مصر أظن ان الزنا لا يكاد يقع الا نادرا من بعض أفراد الجاهلين وهذا ما يعتقده كل من ينشأ في بيئة تغلب فيها العفة ولم يعرف حال غيرها ولا اخبار الشاذين فيها ولو كان فطريا لشعر كل أحد من نفسه بالحاجة اليه كما يشعر بانه في حاجة الى زوج يتحد به. ولعل ما أوردناه كاف للمتدبر ولا يتسع التفسير لأ كثر منه

بين الله تعالى لنا شأن المؤمن في السمع والطاعة ثم طلب المغفرة لما يلم به أو يتهم به نفسه من التقصير وفضله ومنته في عدم تكليف النفس ما ليس في وسعها ثم علمنا هذا الدعاء لندعوه به وهو (ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا) فتركنا ما ينبغي فعله أو فعلنا ما يجب تركه أو جئنا بالشيء على غير وجهه . وهذا يدل على ان من شأن النسيان والخطأ ان يؤاخذ عليهما وسيأتي بيان الوجه فيه والمؤاخذة المعاقبة وهي من الأخذ لان من يراد عقابه يؤخذ بيد القهر . قال الاستاذ الامام ومن الناس من قال ان الخطأ والنسيان لا يؤاخذ عليهما لان الناسي والمخطئ لا ارادة لهما فيما تركاه نسيانا أو خطأ ومثل هذا الكلام يوجد في كتب الاصول والكلام ، ويتبعه من المناقشات ما يبعد به عن حدود الأفهام ، واذا رجع الانسان الى نفسه وتأمل الامر في ذاته علم أن الناسي يصح أن يؤاخذ فيقال له لم نسيت فان النسيان قد يكون من عدم العناية بالشيء وترك اجالة الفكر فيه وترديده في النفس ليستقر في الذاكرة فتبرزه عند الحاجة اليه ولذلك ينسى الانسان ما لا يهمه و يحفظ ما يهمه فاذا كان النسيان غير اختياري فسببه الذي ينشأ عنه اختياري ولذلك يؤاخذ الناس بعضهم بعضا بالنسيان لاسيما نسيان الادنى لما يأمره به الاعلى فاذا عهدت الى من لك عليه سلطان أو فضل بأن يفعل كذا أو يجيئك في يوم كذا فنسي ولم يمتثل فانك تسأله وتؤاخذه بما ترميه به من الاهمال وعدم العناية بأمرك . وقد آخذ الله آدم على ذنبه ثم تاب عليه مع قوله فيه (٢٠ : ١١٢ ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما) وقال في جواب من يسأل يوم القيامة لم حشره أعمى من هذه السورة (٢٤ . كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) وقال في أهل الكتاب (٥ : ١٤ ونسوا حظا مما ذكروا به ـ ١٥ فنسوا

حظا مما ذكروا به) وهناك آية أخرى وقد فسر النسيان فيها بالترك الذي هو لازمه وذلك لايمنع الاستدلال بها لان المراد بالنسيان هنا أيضا لازمه وهو ترك الامتثال . وكذلك الخطأ ينشأ من التساهل وعدم الاحتياط والتروي ولذلك أوجبت الشريعة الضمان في اتلاف الخطإ والدية في جنايته فاذا أراد امرؤ أن يرمي صيدا فأصاب انسانا فقتله كان مؤاخذا في الشريعة وكذا في القوانين الوضعية فثبت ان النسيان على المؤاخذة والخطأ مما جاءت به الشريعة وجرى عليه عرف الناس في معاملاتهم وقوانينهم ولو لم يكن كل من الناسي والمخطيء مقصرا لما كان هذا وكما جاز ذلك وحسن يجوز ان يؤاخذ الله الناس في الآخرة بكل ما يأتونه من المنكر ناسين تحريمه أو واقعين فيه خطأ ولكنه تعالى علمنا أن ندعوه بأن لا يؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا وذلك من فضله علينا واحسانه في هدايتنا فإن هذا الدعاء يذكرنا بما ينبغي من العناية والاحتياط والفكر والتذكر لعلنا نسلم من الخطإ والنسيان أو نقل وقوعهما [illegible] جديرا بالعفو والمغفرة فهذا الدعاء لايدل على ان حكم الله في النسيان والخطإ انه لا يؤاخذ عليهما بل قصارى ما يؤخذ منه انهما مما يرجى العفو عنهما اذا وقع العبد فيهما بعد بذل جهده والاحتياط والتحري والتفكر والتذكر وأخذ الدين بقوة وشعر بتقصيره فلجأ الى الدعاء الذي يقوي في النفس خشية الله تعالى والرجاء بفضله فيكون هذا الاقبال على الله تعالى نورا تنقشع به ظلمة ذلك التقصير ولعل ايراد الشرط بإن للايذان أن هذا خلاف ماينبغي أن يكون عليه المؤمن وانه لايقع الا قليلا وهذا وما قبله مما زدته على كلام الاستاذ الامام في هذا المقام

وقد يرد على هذا التفسير حديث ابن عباس المرفوع عند ابن ماجه وابن المنذر وابن حبان والدار قطني والبيهقي في السنن وهو « ان الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » وهو ضعيف لا يبلغ به استدراكه الكثرة طرقه حد الحسن لغيره (قاله في فتح البيان) وقد يقال ان مخالفته لظاهر الآية يدل على وضعه لا ضعفه الا ان يؤول بأن هذه الامور أعفيها مما يتجاوز عنها في الآخرة ولا يترتب عليها حكمه فان كان صلاة أعيدت وان كان ذنبا وجبت التوبة منه والتضرع الى الله

بالدعاء والأوخذ الناسي والخطيء على ما يترتب على النسيان والخطإ دونهما وقد أخطأ القرافي في فروقه بما كتب هذا المقام خطأ ندعو الله ان يغفره له ·

﴿ ربنا ولا تحمل علينا اصرا ﴾ الاصر العبء الثقيل يأصر صاحبه أي يحبسه مكانه لا يستقل به لثقله وحمله أكثر المفسرين على التكاليف الشاقة لان الآية نزلت في زمن التشريع ونزول الوحي ولذلك قال ﴿ كما حملته على الذين من قبلنا ﴾ أي من الامم التي بعث فيها الرسل كبني اسرائيل فقد كانت التكاليف شاقة عليهم جدا وفي تعليمنا هذا الدعاء بشارة بانه تعالى لا يكلفنا مايشق علينا كما صرح بذلك بعد في قوله (٥: ٦ ما يريد الله ليجعل عليكم في الدين من حرج) وهو يتضمن الامتنان علينا واعلاما بأنه كان يجوز ان يحمل علينا الاصر وانه يجب علينا شكره لذلك وحكمة الدعاء بذلك الآن استشعار النعمة والشكر عليها · وقال بعضهم ان الاصر هو العقو بة على ترك الامتثال وعدم حمل الشريعة على وجهها فطلب منا أن ندعوه بأن لا تكون عقو بتنا على ذلك كعقوبة الامم السابقة التي زادتهم ألوان من العذاب ودمرتهم تدميرا حتى هلكوا هلاكا حتى لم يبق منهم احد أو هلا كا معنويا بأن ضاعت أو تضعضعت شريعتهم ونسوا ما ذكروا به حتى عادوا الى الوثنية والهمجية

﴿ ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به ﴾ من العقوبة أو من البلايا والفتن والمحن وذهب بعض المفسرين الى ان المراد به الشرائع والاحكام وجعلوه دليلا على جواز تكليف مالا يطاق كما تقدم فهو عندهم بمعنى ما قبله قال الاستاذ الامام مسألة تكليف مالا يطاق من الكلام الذي نعوذ بالله منه والخلاف فيها لا يترتب عليه أثر ما في الشريعة وأصل المسألة هل يجوز على الله عقلا ان يكلف الناس مالا يطيقون أم لا والمتقدمون على ان ذلك لم يقع · ومالا يطاق هو مالا يدخل في مكنة الانسان وطوقه وما يطاق هو ما يمكن أن يأتيه ولو مع المشقة · وقد جعلوا مالا يطاق بمعنى المتعذر الذي يعلو القدرة كالذي يستحيل فعله عقلا أو عادة والواجب علينا ان نفهم القرآن بلغته التي أنزل بها لا بعرف افلاطون وفلسفة ارسطو وقد رأينا العرب تعبر بما لا يطاق عما فيه مشقة شديدة كقول الشاعر

وليس يبين فضل المرء الا اذا كلفته مالا يطيق

أقول يريد رحمه الله تعالى اننا اذا فسرنا مالا طاقة لنا به بالاحكام والتكاليف كان معناها مافيه مشقة شديدة ولا يصح ذلك الا اذا فسرنا الإصر بالعقوبة تفاديا من التكرار والاولى أن يفسر الاصر بالتكاليف الشاقة ومالا طاقة به بالعقوبة على التقصير فيها وهو يتضمن الدعاء بنفي سبب العقوبة فيكون المعنى ربنا لاتحمل علينا مايشق علينا من الاحكام بل حملنا اليسير الذي يسهل علينا حمله ربنا ووفقنا لحمل ماحملتنا والنهوض به كما تحب وترضى لكيلا نستحق بمقتضى سنتك ان تحملنا مالا طاقة لنا به من عقوبة المفرطين في دينهم المسرفين في اهوائهم

(واعف عنا) بمحو أثر ماعسانا نلم به من أقسنا وعدم العقوبة عليه (واغفر لنا) أي لاتفضحنا بإظهاره بذاته ولا بالمؤاخذة عليه (وارحمنا) في كل حال بما توفقنا له من اقامة دينك والسير على سنتك التي جعلتها بحكمتك طرقا للسعادة (أنت مولانا) الذي منحتنا أنواع الهداية (١) وأيدتنا بالتوفيق والعناية ، فلا نعبد الا اياك ، ولا نستعين بسواك (فانصرنا على القوم الكافرين) الذين اتخذوا من دونك أولياء ، وجعلوا لهم سلطانا في بعض الاشياء ، فأعرضوا عما مددت لهم من الأسباب ، وجعلوا الملائكة والنبيين ومن دونهم من الارباب ، والذين حجبتهم سنتك الكونية ، عن الايمان بالالوهية والربوبية ، انصرنا على الجاحدين والمرتابين منهم بالحجة والبرهان ، وعلى المعتدين بالسيف والسنان ، وغير ذلك من أسباب حماية الحق التي تختلف باختلاف الزمان ،

استحسن الاستاذ الامام تفسير الجلال النصر بالغلبة الحجة وبالسيف وقال ان النصر بالحجة هو أعلى النصر وأفضله لانه نصر على الروح والعقل والنصر بالسيف انما هو نصر على الجسد ولا نؤثر عنه في تفسير هذه الجمل الاخيرة من الآية شيئا الا هذه العبارة ولكنه قال في شأن هذا الدعاء كله مامثاله : ان الله تعالى ماعلمنا هذا الدعاء لاجل ان نلوكه بألسنتنا ونحرك به شفاهنا فقط كما يفعل أهل الاوراد والاحزاب بل علمنا اياه لاجل أن ندعوه به مخلصين له لاجئين اليه بعد أخذ ما انزله بقوة والعمل به على قدر الطاقة واستعمال مايصل اليه كسبنا من الوسائل والذرائع

(١) راجع أنواع الهداية في تفسير سورة الفاتحة

التي هي وسائل الاستجابة في الحقيقة فمن دعاه بلسان مقاله ولسان حاله معاً فانه يستجيب له بلاشك ومن لم يعرف من الدعاء الا حركة اللسان مع مخالفة الاحكام وتنكب السنن فهو بدعائه كالساخر من ربه الذي لا يستحق الامقته وخذلانه . فاذا كان سبحانه قد بين لنا سبب المغفرة والعفو ، وهدانا الى طرق الغلبة والنصر ، فأعرضنا عن هدايته ، وتنكبنا سننه في خليقته ، ثم طلبنا منه ذلك بألسنتنا دون قلوبنا وجوارحنا ، أفلا نكون نحن الجانين على أنفسنا ، وتوقف الدعاء على العمل يستلزم توقفه على العلم فلا يكون الداعي داعياً حقيقة كما يحب الله ويرضى الا اذا كان قد عرف ما يجب عليه من الشريعة وسنن الاجتماع واتبعه قدر استطاعته . فاذا اتخذت الامة الوسائل التي أمرت بها ودعت الله تعالى ان يثبتها ويتم لها ماليس في وسعها من أسباب النصر فان الله تعالى يستجيب لها حتماً كما ورد في الحديث ان هذه الامة لا تغلب من قلة فنسأله تعالى التوفيق وهداية أقوم طريق (تم تفسير السورة)

سيرة السلف الصالحين في نصيحة السلاطين

[illegible] الاحياء

« وحكي ان حطيطا الزيات جيء به الى الحجاج فلما دخل عليه قال أنت حطيط ؟ قال نعم سل عما بدا لك فاني عاهدت الله عند المقام على ثلاث خصال ان سئلت لأصدقن وان ابتليت لأصبرن وان عوفيت لأشكرن . قال فما تقول فيّ ؟ قال أقول انك من أعداء الله في الارض تنتهك المحارم وتقتل بالظنة . قال فما تقول في أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ؟ قال أقول انه أعظم جرما منك وانما أنت خطيئة من خطاياه . قال فقال الحجاج ضعوا عليه العذاب قال فانتهى به العذاب الى أن شق له القصب ثم جعلوه على لحم وشدوه بالحبال ثم جعلوا يمدون قصبة قصبة حتى انتحلوا لحمه فما سمعوه يقول شيئاً . قال فقيل للحجاج انه في آخر رمق فقال أخرجوه فارموا به في السوق . قال جعفر (أي راوي الحكاية) فأتيته أنا وصاحب له فقلنا له حطيط ألك حاجة فقال شربة ماء فأتوه بشربة ثم مات وكان ابن ثماني عشرة رحمه الله تعالى

وروي ان عمر بن هبيرة (والي العراق لبني أمية) دعا بفقهاء أهل البصرة وأهل الكوفة وأهل المدينة وأهل الشام وقرائها فجعل يسألهم وجعل يكلم عامراً الشعبي فجعل لا يسأله عن شيء الا وجد عنده منه علما ثم أقبل على الحسن البصري فسأله ثم قال هما هذان — هذا رجل أهل الكوفة يعني الشعبي وهذا رجل أهل البصرة يعني الحسن فأمر الحاجب فأخرج الناس وخلا بالشعبي والحسن فأقبل على الشعبي فقال يا أبا عمرو اني أمين أمير المؤمنين على العراق وعامله عليها ورجل مأمور على الطاعة ابتليت بالرعية ولزمني حقهم فانا أحب حفظهم وتعهد ما يصلحهم مع النصيحة لهم وقد يبلغني عن العصابة من أهل الديار الامر أجد عليهم فيه فأقبض طائفة من عطائهم فأضعه في بيت المال ومن نيتي ان أرده عليهم فيبلغ أمير المؤمنين اني قد قبضته على ذلك النحو فيكتب الي ان لا أرده فلا أستطيع رد أمره ولا انفاذ كتابه وانما أنا رجل مأمور على الطاعة فهل علي في هذا تبعة وفي أشباهه من الامور والنية فيها على ما ذكرت قال الشعبي فقلت أصلح الله الامير انما السلطان والد يخطئ ويصيب قال فسر بقولي وأعجب به ورأيت البشر في وجهه وقال فلله الحمد ثم أقبل على الحسن فقال ما تقول يا أبا سعيد قال قد سمعت قول الامير يقول انه أمين أمير المؤمنين على العراق وعامله عليها ورجل مأمور على الطاعة ابتليت بالرعية ولزمني حقهم والنصيحة لهم والتعهد لما يصلحهم وحق الرعية لازم لك وحق عليك ان تحوطهم بالنصيحة واني سمعت عبد الرحمن بن سمرة القرشي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من استرعي رعية فلم يحطها بالنصيحة حرم الله عليه الجنة»(١) ويقول اني ربما قبضت من عطائهم ارادة صلاحهم واستصلاحهم وان يرجعوا الى طاعتهم فيبلغ أمير المؤمنين اني قبضتها على ذلك النحو فيكتب الى ان لا ترده فلا أستطيع رد أمره ولا أستطيع انفاذ كتابه وحق الله ألزم من حق امير المؤمنين والله احق ان يطاع ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق فاعرض كتاب امير المؤمنين على كتاب الله عز وجل فان وجدته موافقا لكتاب الله فخذ به وان وجدته مخالفا لكتاب الله فانبذه يا ابن هبيرة اتق الله فانه

(١) رواه البغوي باسناد لين والشيخان وغيرهما بالمعنى

يوشك ان يأتيك رسول من رب العالمين يزيلك عن سريرك ويخرجك من سعة قصرك الى ضيق قبرك فتدع سلطانك ودنياك خلف ظهرك وتقدم على ربك وتنزل على عملك يا ابن هبيرة ان الله ليمنعك من يزيد وان يزيد لا يمنعك من الله وان امر الله فوق كل أمر وانه لاطاعة فى معصية الله واني أحذرك بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين: فقال ابن هبيرة اربع على ظلعك أيها الشيخ وأعرض عن ذكر أمير المؤمنين فان أمير المؤمنين صاحب العلم وصاحب الحكم وصاحب الفضل وانما ولاه الله تعالى ما ولاه من أمر هذه الامة لعلمه به وما يعلمه من فضله ونيته: فقال الحسن يا ابن هبيرة الحساب من ورائك سوط بسوط وغضب بغضب والله بالمرصاد يا ابن هبيرة انك ان تلق من ينصح لك في دينك ويحملك على أمر آخرتك خير من ان تلق رجلا يغرك ويمنيك فقام ابن هبيرة وقد بسر وجهه وتغير لونه قال الشعبي فقلت يا أبا سعيد أغضبت الامير وأوغرت صدره وحرمتنا معروفه وصلته فقال اليك عني يا عامر قال فخرجت الى الحسن التحف والطرف وكانت له المنزلة واستخف بنا وجفينا فكان أهلا لما أدى اليه وكنا أهلا أن يفعل ذلك بنا فما رأيت مثل الحسن فيمن رأيت من العلماء الا مثل الفرس العربي بين المقارف (١) وماشهدنا مشهدا الابرز علينا وقال لله عزوجل وقلنا مقاربة لهم قال عامر الشعبي وأنا أعاهد الله أن لا أشهد سلطانا بعد هذا المجلس فأحابيه

وعن الشافعي رضي الله عنه قال حدثني عمي محمد بن علي قال اني لحاضر مجلس أمير المؤمنين ابي جعفر المنصور وفيه ابن أبي ذؤيب وكان والي المدينة الحسن بن زيد قال فأتى الغفاريون وشكوا الى أبي جعفر شيأ من أمر الحسن بن زيد فقال الحسن يا أمير المؤمنين سل عنهم ابن أبي ذؤيب قال فسأله فقال ما تقول فيهم يا ابن أبي ذؤيب فقال أشهد انهم أهل تحطم في اعراض الناس كثيرا والاذى لهم فقال أبو جعفر قد سمعتم فقال الغفاريون يا أمير المؤمنين سله عن الحسن بن زيد فقال أشهد عليه انه يحكم بغير الحق ويتبع هواه فقال قد سمعت يا حسن ما قال فيك ابن أبي ذؤيب وهو الشيخ الصالح

---

(١) وفى نسخة المقاريف وكلاهما جمع مقرف كمحسن وهو ما كان ابوه غير عربي ويقابله الهجين

فقال يا أمير المؤمنين اسأله عن نفسك فقال ماتقول في قال تعفيني يا أمير المؤمنين قال أسألك بالله ألا اخبرتني قال تسألني بالله كانك لاتعرف نفسك قال والله لتخبرني قال انك أخذت هذا المال من غير حقه فجعلته في غير أهله وأشهد ان الظلم ببابك فاش قال فجاء أبو جعفر من موضعه حتى وضع يده في قفا ابن أبي ذوئب فقبض عليه ثم قال له أما والله لولا اني جالس ههنا لاخذت فارس والروم والديلم والترك بهذا المكان منك قال فقال ابن أبي ذوئب يا أمير المؤمنين قد ولي أبو بكر وعمر فأخذا الحق وقسما بالسوية وأخذا بأقفاء فارس والروم وأصغرا آنافهم قال فخلى أبو جعفر قفاه وخلى سبيله وقال والله لولا اني أعلم انك صادق لقتلتك فقال ابن أبي ذوئب والله يا أمير المؤمنين اني لأنصح لك من ابنك المهدي قال فبلغنا ان ابن أبي ذوئب لما انصرف في مجلس المنصور لقيه سفيان الثوري فقال له يا أبا الحرث لقد سررتني بما خاطبت به هذا الجبار ولكن ساءني قولك له ابنك المهدي فقال يغفر الله لك يا أبا عبد الله كلنا مهدي كما كان في المهد

وعن الاوزاعي عبد الرحمن بن عمرو قال بعث الي أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين وأنا بالساحل فأتيته فلما وصلت اليه وسلمت عليه بالخلافة رد علي واستجلسني ثم قال لي ما الذي ابطأ بك عنا يا اوزاعي قال قلت وما الذي تريد يا أمير المؤمنين قال اريد الاخذ عنكم والاقتباس منكم قال فقلت فانظر يا أمير المؤمنين انك لاتجهل شيأ مما أقول لك قال وكيف لا أجهله وأنا أسألك عنه وفيه وجهت اليك واقدمتك له قال قلت أخاف ان تسمعه ثم لاتعمل به قال فصاح بي الربيع وأهوى بيده الى السيف فانتهره المنصور وقال هذا مجلس مثوبة لامجلس عقوبة فطابت نفسي وانبسطت في الكلام فقلت يا أمير المؤمنين حدثني مكحول عن عطية بن بشر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ايما عبد جاءته موعظة من الله في دينه فانها نعمة من الله سيقت اليه فان قبلها بشكر والا كانت حجة من الله عليه ليزداد بها اثما ويزداد الله بها سخطا عليه » يا أمير المؤمنين حدثني مكحول عن عطية بن بشر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أيما وال مات غاشا

رعيته حرم الله عليه الجنة»(١) يا أمير المؤمنين من كره الحق فقد كره الله ان الله هو الحق المبين ان الذي لين قلوب امتكم لكم حين ولاكم أمورهم لقرابتكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كان بهم رؤفا رحيما مواسيا لهم بنفسه في ذات يده محمودا عند الله وعند الناس فحقيق بك ان تقوم له فيهم بالحق وان تكون بالقسط له فيهم قائما ولعوراتهم ساترا لاتغلق عليك دونهم الابواب ولا تقم دونهم الحجاب تبتهج بالنعمة عندهم وتبتئس بما أصابهم من سوء يا أمير المؤمنين قد كنت في شغل شاغل من خاصة نفسك عن عامة الناس الذين أصبحت تملكهم أحمرهم وأسودهم مسلمهم وكافرهم وكل له عليك نصيب من العدل فكيف بك اذا انبعث منهم فئام وراء فئام وليس منهم احد الا وهو يشكو بلية أدخلتها عليه، أو ظلامة سقتها اليه، يا أمير المؤمنين حدثني مكحول عن عروة بن رويم قال كانت بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم جريدة يستاك بها ويروع بها المنافقين فأتاه جبرائيل عليه السلام فقال له يا محمد ما هذه الجريدة التي كسرت بها قلوب أمتك وملأت قلوبهم رعبا فكيف بمن شقق أستارهم وسفك دماءهم وخرب ديارهم وأجلاهم عن بلادهم وغيبهم الخوف منه يا أمير المؤمنين حدثني مكحول عن زياد بن حارثة عن حبيب بن مسلمة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الى القصاص من نفسه في خدش خدشه أعرابيا لم يتعمده فأتاه جبريل عليه السلام فقال يا محمد إن الله لم يبعثك جبارا ولا متكبرا فدعا النبي صلى الله عليه وسلم الاعرابي فقال اقتص مني فقال الأعرابي قد أحللتك بأبي أنت وأمي وما كنت لأفعل ذلك ابدا ولو على نفسي فدعا له بخير (٢) يا أمير المؤمنين قد سأل جدك العباس النبي صلى الله عليه وسلم امارة مكة أو الطائف أو اليمن فقال له النبي عليه السلام «يا عباس يا عم النبي نفس تحييها خير من امارة لاتحصيها» (٣) نصيحة من لعمه وشفقة عليه وأخبره انه لايغني عنه من الله شيأ اذ أوحى الله اليه (وأنذر عشيرتك الاقربين) فقال يا عباس ويا صفية

---

(١) رواه وما قبله وكذا حديث الجريدة الآتي ابن ابي الدنيا في مواعظ الخلفاء وابو نعيم وابن عساكر والبيهقي في الشعب (٢) رواه من ذكر وابو داود والنسائي (٣) رواه ابن ابي الدنيا والبيهقي وابو نعيم وابن عساكر

عني النبي ويا فاطمة بنت محمد اني لست أغني عنكم من الله شيأ ان لي عملي ولكم عملكم»(١) وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يقيم أمر الناس الا حصيف العقل أريب العقد لا يطلع منه على عورة ولا يخاف منه على حرة ولا تأخذه في الله لومة لائم وقال الامراء أربعة فامير قوي ظلف (أي منع) نفسه وعماله فذلك كالمجاهد في سبيل الله يد الله باسطة عليه بالرحمة وأمير فيه ضعف ظلف نفسه وأرتع عماله لضعفه فهو على شفا هلاك الا أن يرحمه الله وأمير ظلف عماله وأرتع نفسه فذلك الحطمة الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم « شر الرعاة الحطمة» فهو الهالك وحده (٢) وأمير أرتع نفسه وعماله فهلكوا جميعا :

وبعد أن أطال في وعظه بما حذفنا بعضه اختصارا قال

« يا أمير المؤمنين من أشد الشدة القيام لله بحقه وان أكرم الكرم عند الله التقوى وانه من طلب العز بطاعة الله رفعه الله وأعزه ومن طلبه بمعصية الله أذله الله ووضعه فهذه نصيحتي اليك والسلام عليك ثم نهضت فقال لي الى اين فقلت الى الولد والوطن بإذن أمير المؤمنين ان شاء الله فقال قد اذنت لك وشكرت لك نصيحتك وقبلتها والله الموفق للخير والمعين عليه وبه أستعين وعليه أتوكل وهو حسبي ونعم الوكيل فلا تخلني من مطالعتك أياي بمثل هذا فانك المقبول القول غير المتهم في النصيحة : فقلت أفعل ان شاء الله تعالى قال محمد بن مصعب فامر له بمال يستعين به على خروجه فلم يقبله وقال أنا في غنى عنه وما كنت لأبيع نصيحتي بعرض من الدنيا . وعرف المنصور مذهبه فلم يجد عليه في ذلك

« وعن ابن المهاجر قال قدم أمير المؤمنين المنصور مكة شرفها الله حاجا فكان يخرج من دار الندوة الى الطواف في آخر الليل يطوف ويصلي ولا يعلم به فاذا طلع الفجر رجع الى دار الندوة وجاء المؤذنون فسلموا عليه واقيمت الصلاة ليصلي بالناس فخرج ذات ليلة حين أسحر فبينا هو يطوف اذ سمع رجلا عند الملتزم وهو يقول : اللهم اني أشكو اليك ظهور البغي والفساد في الارض وما يحول

(١) رواه البخاري وغيره على خلاف في اللفظ .

(٢) رواه مخرجو الاحاديث السابقة ومسلم وغيرهم

بين الحق وأهله من الظلم والطمع، فاسرع المنصور في مشيته حتى ملأ مسامعه من قوله ثم خرج فجلس ناحية من المسجد وأرسل اليه فدعاه فاتاه الرسول وقال له أجب أمير المؤمنين فصلى ركعتين واستلم الركن وأقبل مع الرسول فسلم عليه فقال له المنصور ما هذا الذي سمعتك تقوله من ظهور البغي والفساد في الارض وما يحول بين الحق وأهله من الطمع والظلم فوالله لقد حشوت مسامعي ما أمرضني وأقلقني. فقال يا أمير المؤمنين ان أمنتني على نفسي انبأتك بالامور من أصولها والا اقتصرت على نفسي ففيها لي شغل شاغل. فقال أنت آمن على نفسك فقال: الذي دخله الطمع حتى حال بينه و بين الحق واصلاح ماظهر من البغي والفساد في الارض انت: فقال ويحك و كيف يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء في يدي والحلو والحامض في قبضتي. قال وهل دخل أحدا من الطمع ما دخلك يا أمير المؤمنين ان الله استرعاك أمور المسلمين وأموالهم فأغفلت أمورهم واهتممت بجمع أموالهم وجعلت بينك وبينهم حجابا من الجص والآجر وأبوابا من الحديد وحجبة معهم السلاح ثم سجنت نفسك فيها عنهم وبعثت عمالك في جمع الاموال وجبايتها واتخذت وزراء وأعوانا ظلمة ان نسيت لم يذكروك وان ذكرت لم يعينوك، وقويتهم على ظلم الناس بالاموال والكراع والسلاح، وأمرت بأن لا يدخل عليك من الناس الا فلان وفلان نفر سميتهم، ولم تأمر بإيصال المظلوم ولا الملهوف ولا الجائع ولا العاري ولا الضعيف ولا الفقير، ولا أحد الا وله في هذا المال حق، فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك وأمرت ان لا يحجبوا عنك تجبي اليك الاموال ولا تقسمها قالوا هذا قد خان الله فما لنا لا نخونه وقد سخرنا فائتمروا على ان لا يصل اليك من علم أخبار الناس شيء الا ما أرادوا وأن لا يخرج لك عامل فيخالف لهم أمرا الا أقصوه حتى تسقط منزلته ويصغر قدره فلما انتشر ذلك عنك وعنهم أعظمهم الناس وهابوهم وكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والاموال ليتقووا بهم على ظلم رعيتك ثم فعل ذلك ذوو القدرة والثروة من رعيتك لينالوا ظلم من دونهم من الرعية فامتلأت بلاد الله بالطمع بغيا وفسادا وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك وانت غافل فان جاء متظلم حيل بينه وبين الدخول اليك وان أراد رفع صوته أو قصته اليك عند ظهورك وجدك قد نهيت عن ذلك ووقفت للناس رجلا ينظر في مظالمهم فان جاء ذلك

الرجل فبلغ بطانتك سألوا أصحاب المظالم أن لا يرفع مظلمته وإن كانت للمتظلم به حرمة وإجابة لم يمكنه مما يريد خوفا منهم فلا يزل المظلوم يختلف اليه ويلوذ به ويشكو ويستغيث وهو يدفعه ويعتل عليه فاذا اجهد وأخرج وظهرت صرخ بين يديك فيضرب ضربا مبرحا ليكون نكالا لغيره وأنت تنظر ولا تنكر ولا تغير فما بقاء الاسلام وأهله على هذا. ولقد كانت بنو أمية وكانت العرب لا ينتهي اليهم المظلوم الا رفعت ظلامته اليهم فينصف ولقد كان الرجل يأتي الى أقصى البلاد حتى يبلغ باب سلطانهم فينادي يا أهل الاسلام فيبتدرونه: مالك مالك؟ فيرفعون مظلمته الى سلطانهم فينتصف. ولقد كنت يا أمير المؤمنين أسافر الى أرض الصين وبها ملك فقدمتها مرة وقد ذهب سمع ملكهم فجعل يبكي فقال له وزراؤه مالك تبكي لا بكت عيناك فقال أما اني لا أبكي على المصيبة التي نزلت بي ولكن أبكي لمظلوم يصرخ بالباب فلا أسمع صوته ثم قال أما ان كان قد ذهب سمعي فان بصري لم يذهب نادوا في الناس ألا لا يلبس ثوبا احمر الا مظلوم فكان يركب الفيل ويطوف طرفي النهار لعله يرى مظلوما فينصفه هذا يا أمير المؤمنين مشرك بالله قد غلبت رأفته بالمشركين ورقته على شح نفسه في ملكه وأنت مؤمن بالله وابن عم نبي الله لا تغلبك رأفة بالمسلمين ورقتك على شح نفسك »

وبعد ان أطال في موعظته وخوفه من الله وعذاب الآخرة بما حذفنا بعضه للاختصار بكى المنصور بكاء شديدا حتى نحب وارتفع صوته ثم قال ياليتني لم اخلق ولم أك شيئا ثم قال كيف احتيالي فيما خولت ولم أر من الناس الا خائنا فقال يا أمير المؤمنين عليك بالائمة الاعلام المرشدين قال ومن هم قال العلماء قال قد فروا مني قال هربوا منك مخافة ان تحملهم على ما ظهر من طريقتك من قبل عمالك ولكن افتح الابواب وسهل الحجاب وانتصر للمظلوم من الظالم وامنع المظالم وخذ هذا الشيء مما حل وطاب واقسمه بالحق والعدل . وانا ضامن على ان من هرب منك أن يأتيك فيعاونك على اصلاح أمرك ورعيتك . فقال المنصور اللهم وفقني ان أعمل بما قال هذا الرجل

(المنار) أليس ملوكنا الآن أحوج الى مثل هذه النصيحة من المنصور وهم غير منصورين أليس حالهم شرا من حاله وملكهم دون ملكه، وهروب الخيار منهم أكثر من هروبهم منه والخطر عليهم من الظلم أشد من خطره عليه في زمنه ؟ بلى ولكن أين العلماء الناصحون ؟

﴿ المعارف في مصر قبل الثورة العرابية ﴾

كانت الحكومة المصرية قد دخلت في أول عهد ولاية توفيق باشا في طور جديد من الاصلاح الحقيقي وكان الفضل الاول في تنفيذ ذلك لرياض باشا وكان الاستاذ الامام رحمه الله تعالى في تلك الوزارة الرياضية عقلا مفكرا وروحا مدبرا اذ كان برياسة قلم المطبوعات وتحرير الجريدة الرسمية كالمسيطر على جميع أعمال الحكومة كما بينا في ترجمته من المجلد الثامن ، ومن ذلك عنايته بانتقاد نظارة المعارف انتقادا كان له شأن عظيم في اصلاح شأنها وانا نورد هنا بعض مقالاته نقلا عن الجزء الثاني من تاريخ حياته (الذي يطبع الآن) وهي

وكتب في العدد ٩٩٠ منها الصادر في ١٨ محرم سنة ١٢٩٧ — ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٨٠



كثر تحدث الناس في شأنها في هذه الاوقات وكانهم لما فرغوا من الافكار المتعلقة بالامور المالية والادارية كوما كان فيها من الاضطراب وتنوع الاحوال وتقلب الاشكال اذ كفتهم الحكومة أمر ذلك كله بثباتها وتبصر رجالها العقلاء أخذوا يلتفتون الى مابه حياتهم الحقيقية ونمو هيئتهم الاجتماعية وظهور شأنهم بين الناس وحسبانهم في عداد أهل العالم وهو العلم النافع الذي رأينا جيراننا من الممالك نالوا به السيادة على غيرهم وطفقوا يتذاكرون فيما به يكون تقدمه والوسائل الموصلة الى انتشاره في أقطاره موجهين آمالهم الى نظارة المعارف العمومية لانها ذات الشأن فيه فقالوا كلاما كثيرا اذكره كما قيل

قالوا ان المدارس ينبوع هذا الخير الجليل (العلم) وليس له من وسيلة سواها ولكن تحت شروط لابد من استيفائها (ولسنا الآن بصدد بيانها) وقد افتتحت المدارس في ديارنا من عهد المرحوم محمد علي باشا لكن كان اسمها غريبا على الآذان وحشيا عن القلوب يساق الناس اليها(كأنما يساقون الى الموت) إذ كانوا يظنون ان الدخول في المدارس هو الانتظام في العسكرية والدخول في العسكرية

هو الشقاء الدائم والبلاء المقيم وبعض الناس بعد التشبه كانوا لا يرون خطة أرفع من حطة الكتابة في ديوان أو مصلحة لما يرون للكتاب من المكانة عند الحكام والتصرف في الحقوق فاكتفوا بارسال ابنائهم الى الكتبة يعلمونهم حتى اذا كبروا انتظموا في سلكهم وكانت لهم المنزلة المطلوبة بدون حاجة لى مدرسة ولا مكتب منتظم وبعض الناس ربما كان يعلم فائدة المدارس ولكن كانت توجد له أسباب تمنعه من تربية أبنائه فيها ولكنا لا نبديها وأما في أيامنا هذه فقد تنبهت العقول ووقفوا على فوائد العلم وثمراته حق الوقوف غير أن ذلك يقضي على الآباء بتربية أبنائهم من الآن فصاعدا على الطريقة المنتظمة أما الشبان الذين فاتهم زمن التعليم في تلك الجهالة السابقة واشتغلوا بتحصيل مادة المعاش إما بالتوظف في الخدمات الميرية أوطلب الكسب من وجوه أخر ولهم شوق تام الى كسب فضيلة العلم فلا تساعدهم أحوالهم بالضرورة على الرجوع الى التعليم في مكاتب الاطفال وتعطيل أسباب معاشهم فيود الكثير منهم ان تكون في البلاد مدارس ليلية ببلدان كثيرة فيها بعض ما فاتهم في الأزمنة السابقة أزمنة جعل آبائهم لتعلمهم لذلك يتعلمون أنفسهم وأولادهم أكثر ما يقدرون عليه الآن حتى اهتم بعض من الشبان من مدة نحو سنتين بتأليف جمعية لفتح مدرسة ليلية ثم عارضتهم بعض الموانع فلم تساعدهم القادر على النجاح وكانوا في انتظار توفيق السعي يسوق اليهم ذلك الخير حتى سمعوا بان نظارة المعارف تروم افتتاح مدرسة ليلية ففرحوا واستبشروا وقالوا نعمة من الله سيقت الينا نؤدي له مزيد الشكر عليها ثم انقبضت نفوسهم عند ما سمعوا من شروط تلك المدرسة ان تكون دروسها باللغة الفرنساوية خاصة ولا يقبل فيها الا من كانت عنده مبادىء الرياضيات والطبيعيات وله تقدم في اللغة الفرنساوية وقالوا ياسبحان الله ان المدارس الليلية في البلاد المتمدنة تقرأ فيها العلوم الابتدائية باللغة العامية مع التزام التسهيل في التعبير والتحاشي عن ذكر الالفاظ الاصطلاحية الغريبة أو العسرة التفهيم وذلك لفائدتين (الاولى) ان كل من يعرف القراءة والكتابة يمكنه أن يفهم مبادىء العلوم بهذه الطريقة فلا تفتر همة الذين لم ينالوا حظ التعليم في صغرهم وينتشر العلم حقيقة إذ لا يكون في فهمه صعوبة ولا يمنع الشخص عن أشغاله النهارية (والثانية) انه اذا

كان التعليم على هذا النمط تكون المسائل العلمية لقربها الى الفهم كاحدوثات تتسلى بها النفس بل ألذ من ذلك إذ لا يدخل الرجل محفل العلم الا و يخرج بنور جديد فتنجذب نفوس الناس الى مستلحات العلم فبدل صرف أوقات ليلهم الطويل في مضاجعهم يتقلبون من جانب الى جانب أو في بيوتهم بمحادثات لا طائل تحتها أو في أماكن أخرى نتحاشى عن ذكرها يهرعون الى معهد العلم ليغذوا عقولهم و يروحوا قلوبهم ولم نسمع ان أمة متمدنة افتتحت مدرسة عالية وجعلتها ليلية فلم عدل عن هذه الطريقة الجليلة في بلادنا واخترعت طريقة جديدة وهو جعل التدريس في المدرسة الليلية بلسان أجنبي عن لسان البلد بالكلية لا يفهمه المتفنن منهم ولا العامي والعلوم التي يقرأ بها عالية لا ابتدائية حتى يحرم الناس الذين هم أحوج الى التعليم وأولى به وهم العامة وأرباب الكسب المحبون لنيل فضيلة العلم ولا يستطيعون، و يتلهفون على ذلك ولا يجدون، وهو مما يوجب الاسف خصوصا وقد تواتر على الألسنة ان طالب من قبلوا فيها أجانب (وان كان ذلك غير صحيح فعندي على اليقين ان الاكثر وطلبة الكرم من الذين تعلموا في مدارس القرير ونحوها) فهل يقال باننا تقدمنا عن تلك الممالك وترقينا حتى صارت مدارسنا الليلية أعلى من مدارسهم أو أيقنا بأن العامة منا والكتاب لا يستفيدون من ذلك شيئا أولا حظت نظارة المعارف انها بذلك تستحصل في زمن قريب على أساتذة تجعلهم معلمين في مدارسها ومكاتبها فان كان هذا الوجه الاخير قلنا انها ستجعل (مدرسة الحوجات) نهارا فلها أن تزيد في عدد تلامذتها ماشاء لهذا الغرض على أنه لو سلك في المدرسة الليلية مسلك البلاد المتمدنة لتأتى لنا الوصول الى بعض هذا المقصد فكثير من أهل العلم كان يود أن ينتظم في تلك المدرسة ليتعلم العلوم التي فاته تحصيلها لكن منعه كون التدريس بلغة أجنبية وكون الدروس فوق البدايات وان كان الثاني قلنا ان الاستعداد والشوق موجودان في كثير من الناس ولهم رغبة تامة في التعليم فكيف يصح اساءة الظن بجميع شباننا الى هذا الحد وان كان الاول قلنا الاولى ان لا نتكلم واننا وحق الحق لفي حاجة كلية الى ان يكون التعليم الليلي عندنا مستديما آخذا من البداية بسهل الوسائل ميسر الاسباب

بلغة بلادنا عامة أو خاصة حتى تنقطع حجة الجاهل و يبطل برهان المكاسل وتنبعث الغيرة في الكل اذا أقبل البعض على التعليم و يقع التنافس في الفضائل و يجد الشبان الذين استرسلوا مع هوى الشباب شغلا وتوبخهم الذمة ولامنهم ضمائرهم اذا تركوه اذ لا يجدون لهم علة يتعللون بها اذ ذاك بل نرى أنه لا بد أن يكون هذا التعليم الملي اجباريا عاما لكل مستخدم وقارئ· لم يعلم تمام ما يجب عليه في وظائفه الا لضرورة تمنعه من مرض ونحوه خصوصا بعد ما أعلنت الحكومة أن جميع المستخدمين في الادارات أو التحصيلات لا بد ان يكونوا من الدراية بحيث يقدرون على تحقيق القضايا وحل المشكلات بأنفسهم في مواد الجنايات والحقوق والحسابات ونحو ذلك وهذا لا ريب يستدعي أن يكون جميعهم على بصيرة تامة وذوي عقل وافر وهذا لا يمكن الا بعد تحلية العقل بالعلوم الابتدائية التي لا بد منها لكل من يريد الاستقلال في سيره

هذا حاصل أقوال الناس في شأن المدرسة الليلية التي افتتحتها نظارة المعارف قريبا وربما كانت تلك الأقوال صحيحة لكن الأحرى بما قالوا فعليهم بتقديم آرائهم لسعادة ناظر المعارف ليروى فيها ثم يجيبهم الى مطلوبهم ان رآه موافقا وخاليا من الموانع والمحظورات والا أفهمهم بأن تعميم النفع غير ممكن فحينئذ يعلمون الحق و يريحون أنفسهم من الجدال ولهم أقوال في مواضيع شتى يمنعنا من ذكرها في هذا العدد ضيق المقام وربما نذكرها غدا ان شاء الله

وكتب في العدد ٩٩٣ الصادر في ٢١ المحرم سنة ١٢٩٨ — ٢٣ دسمبر سنة ١٨٨٠

المعارف

مقالات الناس فيها وأفكارهم العمومية متنوعة ذكرنا بعضها في عدد سابق ونذكر بعضا منها في هذا العدد حفظا لمتفرقات الاقوال لعل شيئا منها يقترن بصحة فيصادف قبولا وليكون ذلك دليلا على تنبيه الافكار والتفات اذهان الناس الى النافع الحقيقي قالوا

نشرت نظارة المعارف الى جميع فروعها منشورا مبسوط العبارة مشحونا بالمعاني الرفيعة قاضيا على نظار المدارس والمكاتب ومعلميها بوجوب التفاتهم لوظائفهم وقيامهم

واجباتهم مبينا لهم أن الامتحانات في العام الماضي على الطريقة الجديدة قد أظهرت ان في بعض المدارس قصورا في التعليم وفي بعضها كمالا وزيادة فاستوجب موظفو الاولى التوبيخ والانذار وموظفو الثانية الشكر والثناء فعلى الجميع من الآن فصاعدا بذل الجهد في ارتقاء درجة التعليم بحيث تكون الاستفادة تعقلا وتبصرا لا حفظا ولقانة و بين في هذا المنشور كيفية التعليم وطرق التفهيم وانذر من لم يجد حذوها بوقوعه تحت مسؤلية الديوان

فانشرحت صدور العامة وخاصة بهذه التنبيهات الاكيدة والتعليمات المفيدة وقالوا لو عمل بهذا المنشور لاطمأنت نفوس الكافة الى تربية ابنائهم في مدارسنا التي يصرف بها آلاف من الجنيهات على خزينة الحكومة ليتربى بها على توالي الازمنة رجال يكونون فخر البلاد وحماة ذمارها فقد كانت النفوس [illegible] من نجاح التعليم فيها قبل اليوم ولذلك كانت مدارس الفرير والانكليز والامريكان والبروسيان وغيرها عامرة بأبناء الاهالي مسلمين [illegible] فيخرج منهم العدد اللائق بشأنها ولم يكن ذلك الا لما أظهرته التجربة من نجاح التعليم في تلك وقصوره في هذه مع مراعاة الآداب التي يفرح بها الوالدان والاقارب في المدارس الاجنبية واغفالها في مدارسنا لكن (الحمد لله) تلك أيام قد خلت فان التفات سعادة ناظر المعارف الى كيفية التعليم وتشديده في ان تكون على وجهها الحقيقي مما يعيد الآمال و يقويها

الا أنهم يتساءلون فيما بينهم بسؤالات كثيرة منها قولهم هل حصلت المكافأة الحقيقية لمن أظهر الامتحان اجتهادهم من النظار والمدرسين وهي مكافأة الدينار والدرهم فان مكافأة الشكر والثناء وان كانت واجبة وهي من أجل المكافأة وأجملها ولها تأثير في جلب الرغبات وتقوية العزائم لكنها لا تلتصق بالقلب التصاق النقود والمساعدة المعاشية فان من ضاق عليه العيش وكانت حاجاته أكثر من ايراده لا تنفك عنه الوساوس ولا يبارح ذهنه الاضطراب وتغلب منغصات الحاجة وآلامها على الفرح الذي أنعشه عند ما سمع كلمة الثناء عليه ثم ذلك ينقص من اجتهاده ويحط من همته بل ربما أورث خللا في كيفية تأديته لوظائفه خصوصا اذا

رأى غير المجتهد مماثلا له في الرزق وأوفر راتبا منه ولقد صدق القائل النقص من الرواتب نقص من الاعمال: لكن المنشور لم يذكر فيه حصول تلك المكافأة مع أن المسموع ان ميزانية المدارس كانت قابلة لذلك ونظارة المالية تسمح باستغراقها بل تود لو يزاد فيها

وقولهم هل جميع من نشر عليهم هـذا المنشور الجليل يدركون الغرض منه حق الادراك واذا أدركوه فهل يوجد عندهم من القوة العملية والتدرب على الطرق الجديدة ما يؤهلهم لاجرائه والسير بمقتضاه بحيث تحصل الغاية منه بمجرد نشره أو ان الكثير منهم محتاج لأن يتعلم تلك الطرق ويتمرن عليها والبعض ربما لايمكنه ذلك حتى ولا بالتعليم؟ وهل امتحن المعلمون والنظار كما امتحن التلامذة وعلم المستعد منهم وغير المستعد وجه الدقة والضبط حتى اذا وجد منهم من لا يليق لوظيفة أزيل عنها ورزقه على الله ومن يليق لأعلى منها رقي الى ما يستحق لتوجد الرغبة الحقيقية ولا يخشى [illegible] الاعمال ويتوفر على المعارف زمان تجرب فيه المعلمين مرة أخرى ويكون له حنوا على التلامذة المساكين. ولا نقصد بالامتحان الا السؤال في الفن الذي يعلمه فاذا تبين أنه يمكنه الاحاطة بمسائله ولو بمراجعة الكتب على وجه السهولة عد عارفا ثم طلب الالقاء والتدريس وكيفية التفهيم فرب عالم لايستطيع البيان

يقول الناس إنه يوجد بين المعلمين أشخاص فضلاء نجباء عارفون بفنونهم قادرون على تأديتها بالوجه اللائق لكن يوجد بينهم آخرون ألفوا بعض الطرق العتيقة وتعودوا عليها فلا يستطيعون بعد طول الزمن التحول عنها وان كانوا علماء بفنونهم والبعض منهم يستطيع تأدية القواعد علما ويعجز عن تمرين المتعلم عليها عملا والبعض يوجد خاليا من الأمرين يهزأ به التلامذة ولا يوقرون أستاذيته كل ذلك يزعمون مشاهدته بالعيان ويوجد بين المعلمين صنف من التنبلاء لايحب ان يجهد نفسه في التعليم ويكتفي في درسه بحكاية بعض ما وقع له في يومه أو ليلته ثم ينصرف فهل تعينت هذه الاوصاف في أربابها واعترف للفاضل بفضله وعرف الناقص مقدار نفسه وأنزل كل منزلته؟ هل اختارت نظارة المعارف لاجراء هذا المنشور أشخاصا

من العرفاء كل في فن مخصوص ليطوفوا على المكاتب الابتدائية والمدارس الخصوصية ولا يكون لهم عمل سوى هـذا ليقفوا على أحوال تلامذة جميع المدارس في كل أسبوع أو خمسة عشر يوماً مثلا ويقدموا جميع ما يرونه من الملاحظات على وجه الدقة التامة فان رأوا نقصا عرفوا سببه ومن أي الجهات منبعه وان كان اعوجاجاً في طريق التعليم ارشدوا المعلم الى أسلمه وبينوا له الطريق مرة بعد أخرى فان اعتدل والا اعتزل ويكون أولئك الاشخاص تحت مسؤلية شديدة اذا ظهر فيما بعد نقص ولم يكونوا نبهوا عليه فان ذلك يبعث الغيرة وينشط الاجتهاد في المعلمين وغيرهم وتكون حركة المدارس في خط مستقيم يوصل الى المقصود باقرب الطرق المؤدية اليه ويسهل تدارك الخلل اذا ظهر وازالة النقص اذا طرأ؟ هل دققت نظارة المعارف في معرفة أخلاق النظار والاساتذة الذين وضع الاطفال في كفالتهم يديرون أمورهم ويرشدونهم الى كمالهم وفصلت بين صاحب الاخلاق الفاضلة والافكار المستقيمة والعفة والنزاهة والمهم [illegible] وجب في ذمته حتى يكون حاله وكماله دون [illegible] من يستطيع هذه الكمالات في نفوسهم باشد من انطباع صور المعلومات في عقولهم وهو المعنى المقصود من التربية وبين من لا اخلاق له بأن يكون أحمق أو دنيئا أو عديم الغيرة والذمة أو رديء الافكار ونحو ذلك من الذين تكون معاشرة التلامذة لهم موجبة لتلوثهم بالرذائل وتكون كمائه في الدرس ممزوجة بسم الفساد فتميت أذهانهم وتكون عاقبة أمرهم إما جهلا وقد ضاع الزمان وولى الشباب واما علما ضائعا مصحوبا بشرور تعود على صاحبها بالشقاء ويا ليتها تكون قاصرة عليه ولكن تتعدى الى غيره بحكم العادة المستمرة وعند الفصل بين الفريقين بارشاد الرقباء النبهاء ذوي الفراسة والخبرة بأحوال العالم وأخلاقهم والامانة في الخبر والصدق فيه يميز الخبيث من الطيب ويبحث عن المستقيمين على قدر الطاقة في انحاء البلاد لتفوض اليهم تربية الاطفال والشبان ليكونوا رجالا ينفعون أنفسهم وحكومتهم التي تصرف عليهم المصاريف الكثيرة أملا بحصولها على رجال تقيمهم في وظائفها الكثيرة يؤدون واجباتها بالضبط والامانة

يقولون انه لاشك في كون الكتب الموجودة في العلوم العربية مثلا ليست أساليبها سهلة المأخذ على التلامذة ولاموافقة لطريقة التعليم فى المدارس من اشتغال التلميذ بفنون كثيرة في زمان واحد وأنه يلزم ايجاد طريقة جديدة في التأليف وإزالة كثير من الصعوبات التي عاقت كثيرا من الناس عن التعليم فهل حصلت العناية بتصنيف تلك الكتب وان حصلت فبمن أنيط تصنيفها وهلا شكل مجلس للنظر في مثل تلك التسهيلات ودعي اليه أعضاء ممن لهم سعة في الفكر والاطلاع على الطرق القديمة والجديدة ويكون لهذا المجلس حق في تعيين الكتب التي ينبغي تدريسها في أي الفنون حتى يتأتى اجراء ذلك المنشور السابق على وجه الكمال

من المحقق ان سعادة عبد الله باشا فكري وكيل عموم المدارس في سفره الى الجهات البحرية قد رأى أمورا كثيرة تستحق الالتفات وطلب من نظارة المعارف أشياء مهمة لابد من تقريرها والاسعاف بها قبل أجيب طلبه وحصلت المذاكرة في تلك الأشياء التي أبداها حتى يشرع في تنفيذ مقتضاها الى البحث فى غيرها من الجهات القبلية

هذه جملة من سؤالات سردناها للاحاطة بها وانا نجيب عن ذلك بأن نظارة المعارف هي أعلم بما يجب عليها من جميع ذلك وأنها لاتغفل شيأ مما تعلمه نافعا ومفيدا ومن اليقين انها لاتشرع فى شيء ثم تتركه يتم بنفسه بدون مراقبة فالبتة قد أعدت لمقاصدها وسائل اذ تعلم ان زماننا هذا لايرى فيه الا الأثر الظاهر ولا يؤثر عن رجاله الا الاعمال الحقيقية أما صدور الاوامر والنطق بالالفاظ العالية بدون ترتب فائدة عليها فقد مضى وقته وان الآمال متعلقة برجال تلك النظارة العرفاء الاجلاء كسعادة ناظرها الاكرم الحريص على تقدم العلم والغيور الرفيع الهمة سعادة وكيلها عبد الله باشا فكري والبصير الحاذق وكيل المكاتب الاهلية حضرة علي بك فهمي وسنرى من أعمالهم مايرفع جميع هذه الاوهام ويفتح للمعارف فى عصرنا هذا تاريخا جديدا فهذه هي الفرصة التي نرى فيها الحكومة العالية مساعدة على نشر المعارف وتأييدها فعلينا ان لانضيعها

وكتب في العدد ٩٩٧ الصادر في ٢٦ المحرم سنة ١٢٩٨ — ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٨٠

المعارف

من المحقق ان نظارة المعارف قد اهتمت وعزمت على فتح مدرسة ليلية تقرأ فيها العلوم الابتدائية لتكون عامة النفع شاملة الفوائد يذهب اليها الرجال الذين شغلهم الكسب والضرورات المعاشية نهارا عن التعلم مع رغبتهم فيه وميلهم اليه ولهم من أوقات الليل الطويل فرصة لايضيعونها اذا افتتح مثل هذه المدرسة الا في تعلم ماينفعهم ويزيدهم نورا و بصيرة وسيكون التدريس فيها باللغة العربية التي هي لغة بلادنا و يقرأ فيها درس باللغة الفرنساوية يكون قاصرا على تعليم اللغة لاغير يبتدأ فيه من الهجاء الفرنساوي الى نهاية مايلزم ان يتعلم في تلك اللغة أما دروس اللغة العربية فمنها ماهو خاص بتعليم قواعد اللغة ومنها مايكون في بعض علوم أخر نافعة من آداب وتاريخ أحوال الامم وتاريخ طبيعي و بعض مبادىء الرياضة (فيما سمعت) بحيث لاتنقص عن تلك المدرسة التي سبق منا الكلام عليها المسماة (بمدرسة الشويفات الليلية) التي ... مايقرأ بها وان كانت تختلف عنها بأن هذه تكون لغة التعليم فيها وطنية وتلك أجنبية وهذه آخذة من البدايات وتلك آتية من النهايات وهذه يكون معظم نفعها بل كله للوطنيين وتلك لاتتوسم فيها ذلك الا ببرهان وهذه الاختلافات وان كانت عظيمة لكنها لاتضر في المقصود

ومما ينبغي ذكره انه ثبت في اذهان بعض الناس ان مجرد تعلم اللغات الاجنبية يعد فضيلة يسعى اليها و يهتم بشأنها مع ان اللغة في ذاتها لافضيلة فيها ولا يصح أن تجعل غاية تقصد وانما هي وسيلة لما احتوت عليه تلك اللغة من العلوم والآداب والافكار التي ربما لاتكون مبسوطة في اللغة الوطنية كما هي واضحة في اللغة الاجنبية فطالب تعلم اللغة الفرنساوية مثلا اذا لم تكن عنده مبادىء علوم وملكة ادراك في بعض الفنون التي يطالب التفنن فيها لايعد مصيبا في طلبه الا اذا طلب معها تعلم تلك المبادىء حتى انه عند بلوغه الى حد الاقتدار على فهم اللغة يتيسر له الوصول الى الفائدة المقصودة فلا يصح بناء على ذلك أن يكون

التعلم والتعليم الليليين قاصرين عـلى اللغات فقط بل يلزم أن يكون معها بعض مبادىء العلوم كما عزمت عليه نظارة المعارف الجليلة التي لانزال نرى مساعيها في تقدم أبناء البلاد وبث روح العلم فيهم تأتي من النجاح بما يخلد لسعادة ناظرها ووكيلها طيب الذكر والثناء

وبافتتاح هذه المدرسة يفحم المجادلون وتبطل حجة اللاغين الذين انصبوا الى البحث في المدرسة الليلية وفوائدها وما يعود على البلاد منها ونشرنا وجوه انظارهم فيها في بعض أعدادنا السابقة فكان هذا العمل من نظارة المعارف برهانا فعليا لاجدليا يقنع الناظرين ويفحم المخاصمين ويذهب بتعللات المتعللين ومطاليا لأصحاب تلك الافكار بالبرهان الفعلي أيضا وهو توجه الهمم الى التعلم وافراغ الجهد في تحصيل ثمرات العلم حتى تظهر فوائد هذا الاثر وانا على يقين من أن المستخدمين وغيرهم من ذوي الكسب الذين يعرفون قدر المعارف ويقدرونها حق قدرها يجيبون نظارة المعارف الى طلبها كما أجابتهم [illegible] ويكون لجريدة الوقائع المصرية شرف الاخبار بخير الاخبار وأجر التنبيه على الاهم ومافيه اهـ

(المنار) هذه المقالات وامثالها كانت مبدأ نهضة جديدة في المعارف فهي سبب انشاء المدرسة الليلية العربية وسبب انشاء المجلس الاعلى لنظارة المعارف كما علم من ترجمة فقيدنا في المجلد الثامن بالاجمال وسيعلم من الجزء الاول من تاريخه بالتفصيل . وله مقالات أخرى في انتقاد أعمال الحكومة والامة كانت حادي الاصلاح ومرشده في سائر المصالح والاعمال . وقد كان من الحكمة اسناد الانتقاد إلى حديث الناس لان الكاتب يكتب في جريدة الحكومة ولأن انتقاد الناس أشد تأثيرا من انتقاد واحد وما الناس الباحثون المنتقدون يومئذ الا ذلك الحزب الذي كان الفقيد واستاذه الحكيم عقله المفكر ولسانه الناطق . أما عبارته فانك تراها على قرب العهد بالازهر واسلوب السجع في غاية السلاسة وله مقالات أبلغ منها عبارة لانها أرقى موضوعا وفكرا وسنورد للقراء نموذجا منها

باب المناظرة والمراسلة

الاسلام هو القرآن وحده

﴿ آراء وأفكار ﴾

للدكتور محمد توفيق افندي صدقي الطبيب بسجن ط م

هذا عنوان مقال لي جديد ، أريد أنه أفصح فيه عن رأي أبديه لعلماء المسلمين ، المحققين منهم لا المقلدين ، حتى إذا ما كنت مخطئاً أرشدوني ، وإذا ما كنت مصيباً أيدوني ، وإني من علمهم أمدوني ، فإني لست ممن يهوى الاقامة على الضلال ، ولا ممن يلتذ بحديث مع الجهال ، فلذا أجهد النفس في تحقيق الحق وتمحيصه ، والاسراع إليه إذا بدا لي بارق من بصيصه ؛ وها أنا أشرع في إيضاح المقصود بالتدقيق ، راجياً من الله التوفيق والهداية إلى أقوم طريق فأقول : —

لا خلاف بين أحد من المسلمين في أن متن القرآن الشريف مقطوع به ؛ لأنه منقول عن النبي صلى الله عليه وسلم بالضبط بدون زيادة ولا نقصان ، ومكتوب في عصره بأمر منه عليه السلام ؛ بخلاف الأحاديث النبوية فلم يكتب منها شيء مطلقاً إلا بعد عهده بمدة تكفي لأن يحصل فيها من التلاعب والفساد ما قد حصل ؛ ومن ذلك نعلم أن النبي عليه السلام لم يرد أن يبلغ عنه للعالمين شيء بالكتابة سوى القرآن الشريف الذي تكفل الله تعالى بحفظه في قوله جل شأنه (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) . فلو كان غير القرآن ضروريا في الدين لأمر النبي بتقييده كتابة ولتكفل الله تعالى بحفظه ولما جاز لأحد روايته أحياناً على حسب ما أداه إليه فهمه .

فان قيل ان النبي لم يأمر بكتابة كلامه لئلا يلتبس بكلام الله قلت وكيف ذلك والقرآن معجز بنظمه ولا يمكن لبشر الاتيان بمثله ؟ ولم لم يضمن ما في الاحاديث من الواجبات كما ضمن ما في القرآن حتى نأمن عليه من التغيير والتحريف والاختلاف ؟ ولم كان بعض الدين قرآناً والبعض الآخر حديثاً وما الحكمة في ذلك وما الفرق بين الواجب بالقرآن والواجب بالسنة ؟ فهذه بعض أسئلة ألقيها على الباحثين ليجيبوا عنها إن كان ثم جواب .

سأل بعض الصحابة النبي صلى الله عليه وسلم (هل يجب الوضوء من القيء ؟) فأجاب عليه السلام (لو كان واجباً لوجدته في كتاب الله تعالى) فهذا الحديث صح أو لم يصح فالعقل يشهد له ويوافق عليه وكان يجب أن يكون مبدأ المسلمين لا يحيدون عنه . ولكن ويا للأسف

لحق المسلمين ما لحق غيرهم من الأمم فدفع بهم في ظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج أحدهم يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له من كتابه نوراً فما له من نور

ولع الناس في الأعصر الأولى بالروايات القولية ولوعاً وتفاخروا بكثرة جمعها جموعاً حتى ملأت الأحاديث الآفاق وكثر فيها التضارب والاختلافات . وصار من المستحيل أن يعمل الانسان بدينه بدون أن يقلد غيره ممن أفنوا أعمارهم في عمل مذهب لهم فأصبح التقليد من أوجب الواجبات في دين المسلمين بعد أن كان من ألد أعداء القرآن المجيد . تنوعت المذاهب واختلفت المشارب وتعددت الآراء في كل فرع من فروع الفقه حتى تجد في كل مسألة أن كل ممكن من الممكنات العقلية قد صار مذهباً لأحد الأئمة ووجب على المقلدين القول (بأن الكل على الحق) فأصبح القول باجتماع الضدين بل النقيضين عقيدة من عقائد الدين بين المسلمين حق عليهم القول بأن سيتبعون سنن من قبلهم حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلوه . أراد بعضهم أن يزيل عن العين الرمد فقال بسد باب الاجتهاد . وبذلك شفى الرمد بالاعماء . فصار كل من أراد [illegible] من المارقين . وهكذا ضاع الحق بين الأباطيل . ولولا عناية الله لأزهق روح الحق الباطل

نظر المجتهدون في الأحاديث نظرة فعلموا ما فيها من الاختلاف . وتحققوا أن أكثرها موضوعات ولما أراد كل منهم أن يستخرج مذهبه اضطر أن يرفض منها ما صح عند غيره . فهل يعقل أن الله يدين العالمين بشيء لا يمكن لأحد أن يميز حقه من باطله ؟ وهل يعذر المسلمون في تركهم القرآن خلف ظهورهم والاشتغال عنه بهذه المذاهب وصرف الوقت في مراجعة الروايات التي لا تحصى لظنهم ان القرآن غير واف بالدين كله . والله تعالى يقول (ما فرطنا في الكتاب من شيء) . وإذا صحت مذاهبهم فأي تفريط أكبر من ترك القرآن لا كثر واجباتهم في الصلاة والصوم والحج والزكاة وغير ذلك ؟

دين الله سهل ميسور والتقليد فيه محظور فلو كان العمل بما في الاحاديث واجباً لزم كل مكلف أن يترك أي شغل آخر ويقضي الليالي الطويلة . في مطالعة المجلدات الضخمة من كتب الحديث ؛ ليعرف الضعيف والصحيح والموضوع والحسن والموقوف والمرفوع والناسخ والمنسوخ

فهل في شرعة الانصاف أن أكلف خطة لا تستطاع ؟

يحتج السنيون على صحة قولهم بنحو قوله تعالى (يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله

وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) ولكننا نحن القرآنيين نقول إن اطاعة الرسول لانزاع فيها ولكن النزاع في مسألة أخرى وهي : هل يفرض علينا الرسول فرضاً لم يفرضه كتاب الله ؟ فاذا كان ذلك صحيحاً فهل لأولياء الأمر أن يفرضوا علينا صلوات سبع بدل الخمس أو صيام شهرين بدل الشهر ونحن مأمورون بطاعتهم مثل طاعة الرسول ؟؟ وإذا كان الأمر كذلك فما بال جميع أصحاب المذاهب ميزوا بين أمر الله وأمر الرسول أو بين الواجب والسنة وبين المفروض والمندوب ؟ أليس ذلك إقراراً منهم بالفرق الحائل بين الكتاب والسنة ؟

نحن لانجهل أن كل مذهب منها يقول ببعض فرائض لا أثر لها في الكتاب ، ولكن الذي نلاحظه على أصحابها ونشكرهم عليه أنهم كانوا دائماً مجتهدين أن يأخذوا دليلهم على الفرضية من الكتاب إن أمكنهم حتى أن كثيراً منهم قال بعدم وجوب أشياء كان النبي عليه السلام يواظب عليها ويأمر أصحابه بها إذ لم يجد دليلا عليها من القرآن · فأبو حنيفة مثلا قال بأن قراءة الفاتحة في الصلاة ليست بواجبة لأنه لم يجد أمراً بذلك في كتاب [illegible] قال في الاستنشاق [illegible] مذهبه الجميع إلى القول بأن المضمضة والاستنشاق [illegible] من فرائض الوضوء [illegible] حتى انك تجدهم يستنبطون كل ما قالوا بأنه فرض من الآية الواردة فيه · وبعد ذلك يقولون بأن ما زاد عليه فهو سنة ولو لم يثبت أن النبي تركه مرة واحدة · أليس ذلك أثراً من آثار الفطر السليمة الباقية في نفوسهم؟

إذا نظر ناظر في جميع المذاهب المعروفة واستخرج منها جميع ما أجمعوا على وجوبه وجد أنه كله مستنبط من القرآن الشريف إلا مسائل قليلة جداً أذكر منها بعضها لأهميتها كعدد ركعات الصلاة - ومقادير الزكاة وما يتعلق بها

لاشك عندي أن هاتين المسألتين متواترتان عن النبي صلى الله عليه وسلم فليس ذلك محلا للنزاع · ولكن محل النزاع هو هل كل ما تواتر عن النبي أنه فعله وأمر به يكون واجباً على الأمة الاسلامية في جميع الأزمنة والأمكنة وإن لم يرد له ذكر في القرآن ؟ رأيي أنه لايجب · وربما كان ما يفعله النبي صلى الله عليه وسلم هو مندوب إليه ندباً شديداً أو أنه تطبيق لأوامر القرآن الباقية على أحوال الأمة العربية يجب أن غيرها من الأمم لها أن تستنبط من الكتاب ما يوافق أمورها وأحوالها كما سنبين ذلك في مسألة الزكاة ولنبدأ الآن بالبحث في مسألة ركعات الصلاة · قال الله تعالى (وإذا ضربتم في الأرض

فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدواً مبيناً * وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فاذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم) الى آخر الآية . فيتضح من هذه الآيات الكريمة . أن قصر الصلاة مباح في السفر إذا خفنا العدو ' وان صلاة الخوف للامام ركعتان فقط وللمؤتمين واحدة يصلي نصفهم الركعة الأولى معه ثم يصلي النصف الآخر الركعة الثانية . وهذا هو المتبادر من القرآن الشريف وما ذهب إليه ابن عباس وجابر بن عبد الله ومجاهد فاذا كانت صلاة الخوف ركعة واحدة للمؤتم وظاهر من السياق أن هذا قصر أي دون الواجب فيكون الفرض في أوقات عدم الخوف هو أكثر من ركعة ' أي إن القرآن يفرض على المسلم أن يصلي في كل وقت من أوقات الصلاة أكثر من ركعة ولم يحدد له عدداً مخصوصاً وتركه يتصرف كما شاء ' وبعبارة أخرى ان الانسان يجب عليه ان يصلي ركعتين على الأقل وله ان يزيد عن ذلك ما شاء ان يزيد بحيث لا يخرج عن الاعتدال والقصد فان الغلو في الدين مذموم وكذا في كل شيء (إن الله لا يحب المسرفين) ومن ذلك نعلم أن عدد ركعات الصلاة غير معين إلا بهذا القدر فقط وهو أن لا تنقص عن اثنين ولا تزيد إلى درجة الافراط وبعد ذلك فللمسلم الاختيار فيما يفعل على حسب ما يجده من نفسه ومن وقته . ولا يجوز له القصر عن الركعتين إلا فيما ذكره القرآن الشريف . والذي يدلك من السنة على أن هاتين الركعتين لهما الشأن الأكبر في الدين ما يأتي : —

(١) أول ما فرضت الصلاة كان النبي عليه السلام يصلي دائماً ركعتين ركعتين مدة إقامته بمكة وجزءاً من إقامته بالمدينة . فان قيل لعل ذلك كان في أول الأمر لحدوث عهد المسلمين بالاسلام فناسب أن يكون التكليف حينذاك خفيفاً قلنا إن المعهود في طباع البشر أن يكونوا عند دخولهم في دين جديد شديدي الرغبة في القيام بجميع واجباتهم الدينية ويطلبون المزيد . وكلما طال عليهم العهد أخذوا في التهاون فيها . ولذلك كان المسلمون في أول الاسلام يقومون الليل بعضه إن لم يكن كله . وكلما ازداد اضطهاد المشركين لهم كلما ازدادوا رغبة في الصلاة فلو كلفوا بأكثر من ركعتين في أول الأمر لوجدوا في أنفسهم من الرغبة الشديدة في العمل ما لا يجدونه فيما بعد وخصوصاً لأنهم كانوا غير مكلفين بالجهاد ولا بغيره كالصوم والحج وغيرهما . ثم لو سلمنا أن التخفيف في الصدر الاول كان لمراعاة جانب المسلمين الحديثي العهد بالدين وهم إذ ذاك نفر قليل فلماذا

لا يراعى جانب من دخل في الدين فيا بعد وقد كانوا يعدون بالملايين؟ فلهذه الاسباب نحن نعد هذه المسألة دليلا على أن النبي ما كان يكتفي بالركعتين في ذلك الوقت إلا لبيان أنهما أقل الواجب ثم زاد عليهما فيما بعد لبيان أن الزيادة أولى .

(٢) إن النبي لما زاد عدد ركعات الصلاة كان يقتصر على ركعتين في سفر ولو لم يكن هناك خوف من العدو . ولو كان السفر قصيراً جداً . ولو أقام بالجهة التي سافر إليها بضعة عشر يوماً وزال عنه العناء والتعب . فلو كانت الزيادة واجبة لعدهذا تهاونا وخصوصاً لان القرآن لم يبح القصر الا عند الخوف من العدو ولكنهم يقولون تحكماً ان هذا هو القصر المراد في القرآن ولا يبالون بمخالفة الظاهر منه ونحن نسمي ذلك (اكتفاء بالواجب) محافظة على مقام القرآن الشريف ولا نقول في قوله تعالى (إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا) ان هذا القيد في الآية المذكورة آنفاً لامفهوم له كما يقولون اتباعاً لمذاهبهم .

(٣) كان عليه السلام لا يجهر بالقراءة في الركعتين الأخريين وان جهر في الاولين ولا يقرأ فيهما بعد الفاتحة شيئاً من القرآن فهل يدل ذلك على أن منزلتهما أقل من الركعتين الاولين

(٤) إننا إذا نظرنا الى عدد الركعات التي كان يصليها النبي في أوقات الصلاة مع قطع النظر عما سماه المجتهدون سنة وما سموه فرضاً نجد أنه لم يحافظ على عدد مخصوص فكان تارة يزيد وتارة ينقص ولذلك اختلفت المذاهب في عدد السنن وفي المندوب والمستحب والرغيبة الى غير ذلك من التقسيمات والاسماء التي ما كان يعرفها الرسول نفسه ولا أصحابه ثم إن عدد الركعات التي كان يصليها في الاوقات المختلفة من اليوم هو مختلف أيضاً فصلاة الصبح مثلا أربع ركعات والظهر عشر ركعات أو اثنتا عشرة ركعة . ولكن الشيء المطرد الذي نلاحظه أنه ماصلى وقتاً أقل من ركعتين ولا تقيد بعدد مخصوص وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه كل التأييد .

وأما كونه كان يصلي بعض هذه الركعات في الجماعة ويواظب على ذلك وإذا كانت الصلاة رباعية أو ثلاثية لم يسلم الا مرة واحدة واذا ترك سهواً بعضها أعاده وسجد للسهو فكل هذه أشياء لا يصح أن يرد بها علينا . أما صلاة الجماعة فهي غير

خاصة بالفرض فصلاة العيدين والكسوف والخسوف والاستسقاء وغيرها كان يصليها جماعة وكذا صلى بعض النوافل واما المواظبة على جعل بعض الصلوات أربعاً أو ثلاثاً فهو لايدل على وجوب مافوق الركعتين لأن هذه المواظبة المزعومة غير مسلمة كما بينا ذلك فيما سبق واذا سلمت فكم من أشياء واظب عليها طول حياته وقال بعض الأئمة انها غير واجبة مثل الاستنجاء أو الاستجمار ومثل قراءة الفاتحة في كل ركعة والمضمضة والاستنشاق وغير ذلك كثير جداً . وأما قرن الركعات بتسليمة واحدة فكم من أشياء قرنت بل مزجت بالفرائض وقال الأئمة انها غير واجبة مثل كثير من أعمال الحج والوضوء والصلاة * ولم لا نتخذ نحن جلوسه صلى الله عليه وسلم دائماً بين الركعتين الأوليين والركعتين الأخيرتين اشارة منه الى فصل الواجب من غير الواجب وكذا عدم الجهر في الاخيرتين وعدم قراءة شيء بعد الفاتحة فيهما وأما اعادة ما تركه سهواً وسجود السهو فهو أيضاً غير دليل لان السبب فيه هو أن النبي عليه السلام لما كان ينوي أن يصلي أربع ركعات مثلا ويجد أن قلبه اشتغل بشيء آخر انساه ما هو فيه كان يعد ذلك تقصيراً أو ذنباً فيسجد سجدتي السهو استغفاراً لله تعالى وطلباً للصفح عنه وذلك بعد أن يعيد ما كان نوى أن يصليه و[illegible] وان كان سهوها الفكر في أمر شريف يليق بالأنبياء فان حسنات الابرار سيئات المقربين وليس سجود السهو هذا خاصاً بترك الفرض بل إذا نسي الانسان اي شيء مما نوى عمله حق عليه أن يتممه فاذا نوى ان يصلي مثلاً أربع ركعات فصلى سهواً ثلاثاً ثم تذكر فليصل ما نسيه وليسجد . قال عليه الصلاة والسلام (اذا قام أحدكم يصلي أتاه الشيطان فلبس عليه حتى لا يدري كم صلى فاذا وجد ذلك احدكم فليسجد سجدتين)

واما الاحتجاج بالاجماع فهو غير حجة علينا لان اصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ما كانوا يعرفون اصطلاحات هذه الفقهية فلا يميزون بين ما نسميه نحن الان سنة او فرضاً او مندوباً او مستحباً بل كانوا يحافظون على كل شيء رأوا النبي عليه السلام يفعله . واما اجماع الخلف فلا نعبأ به والاستشهاد بحديث (لا تجتمع امتي على ضلالة) ان صح هذا الحديث عنه عليه الصلاة والسلام فنحن لا نقول ان المسلمين اجتمعت في هذه المسألة على ضلالة فان من عرف ان الواجب عليه ركعتان على الاقل فصلى اربعاً تقليداً للرسول عليه السلام شكراً منه وشكره الله ورسوله وزاده الله اجراً . وانما الغرض من هذا البحث هو تمحيص المسائل علمياً ليس الا . وهو يفيدنا ايضاً في مسائل اخرى من الوجهة العملية فوائد لا تحصى

﴿ مبحث الزكاة ﴾

نذكر أولا مقدار النصاب من الذهب والفضة والماشية وما يجب في كل من الزكاة حسب ما ورد في السنة المتواترة(١):

النصاب			ما يخرج من الزكاة
(١) من الذهب ٢٠ دينارا (أي ١٠ جنيهات تقريبا)			نصف دينار
(٢) « الفضة	»	٢٠٠ درهم	٥ دراهم
(٣) « الابل	»	٥ جمال	شاة واحدة
(٤) « البقر	»	٣٠ بقرة	عجل تبيع
(٥) « الغنم	»	٤٠ شاة	شاة واحدة

فالذي يكاد يجزم به العقل أن قيمة النصاب من كل لا بد أنها كانت عند العرب متساوية أي إن من كان عنده منهم ٢٠ دينارا كمن عنده ٢٠٠ درهم أو ٥ جمال أو ٤٠ شاة ولذلك تؤخذ شاة واحدة ممن عنده ٤٠ شاة وكذا ممن عنده ٥ جمال. ولو لم تكن جميع هذه المقادير متساوية لكان هناك ظلم لبعض الناس دون الآخرين. ومما يرجح أن هذه المقادير إن لم تكن متساوية فهي متقاربة جدا أن مالكا رضي الله عنه جعل القطع ليد السارق مشروطة بسرقة ربع دينار أو ثلاثة دراهم لتساوي هذين القدرين وعليه يكون نصف الدينار يساوي ٦ دراهم. وإذا لاحظنا أن ما يؤخذ من نصاب الذهب هو نصف دينار وما يؤخذ من نصاب الفضة هو ٥ دراهم أدركنا أن ما يؤخذ من كل هو متقارب جدا إن لم نقل إنه كان متساويا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، وإذا كان الامر كذلك كان ثمن الشاة أو العجل التبيع هو ٥ دراهم أو نصف دينار أي نحو ٢٥ غرشا صاغا مصريا بالتقريب. وذلك في مبدأ الاسلام وهي قيمة زهيدة جدا ولا شك أن هذه القيمة تختلف اختلافا كبيرا بحسب البلاد وبحسب الازمنة ومن ذلك نعلم أن ما بينته السنة للعرب في ذلك الزمن لا يصلح لجميع الامم في الاوقات المختلفة ولذلك لم يرد شيء من ذلك في القرآن مطلقا لانه هو الكتاب الوحيد الذي أمر النبي أصحابه بحفظه لجميع العالمين وتركت أمثال هذه التفاصيل فيه لتتصرف كل أمة في الامور بما يناسب حالها فيجب على أولياء الامر بعد الشورى ومراجعة نصوص

(١) قوله السنة المتواترة فيه نظر

الكتاب أن يضعوا للأمة نظاما في هذه المسألة وفي غيرها تسير عليه · ولا يصح أن نجمد على ماوضع للعرب في ذلك الزمن جمودا يبعدنا عن العقل والصواب فان الذي عنده عشرة جنيهات أو خمسة جمال مثلا إذ عد غنيا عند قوم فلا يلزم أن يكون غنيا عند الآخرين ثم إن ربع العشر إذ قام باصلاح حال الفقراء والمساكين وأبناء السبيل والغارمين وبالنفقة منه على العاملين على الزكاة والمؤلفة قلوبهم وفي سبيل الله وفي تحرير الرقاب إنما قام بكل هذه الشؤون في زمن أو بلد فليس ضروريا أن يكون كافيا كذلك في زمن آخر أو في بلدة أخرى · ومن ذلك تعلم حكمة الله في عدم تبيين شئ من ذلك في كتابه تعالى · وغاية ماذكر فيه الحث على إعطاء الزكاة وأنها تؤخذ من أصحاب الاموال وأن تعطى من ثمر النخل والزيتون والرمان يوم حصاده ولنا أن نقيس على ذلك أن زكاة الاموال تؤخذ سنويا من أربابها وذكر فيه أيضاً مصارفها التي أشرنا اليها سابقا

وخلاصة القول في هذا الموضوع أنا يجب علينا الاقتصار على كتاب الله تعالى مع استعمال العقل والتصرف أو بعبارة أخرى (مع الكتاب والقياس) وأما السنة فما زاد منها عن الكتاب إن اشتمل ... وإن لم تنظر تركناه · وما فيها من الحكم الكثيرة نقبلها على العين والرأس · وكذلك أي حكم من أي مصدر آخر

﴿ كلمة في الصوم والحج ﴾

أما الصوم فجميع ما اتفق على وجوبه المجتهدون هو واضح في القرآن وكذلك جميع أركان الحج وهنا يناسب أن أذكر شيأ عن تقبيل الحجر الاسود ردا على أعداء الاسلام فأقول

هذا الحجر موضوع في أحد أركان الكعبة وأصله علامة وضعها ابراهيم عليه السلام ليعرف به الركن الذي يبتدأ منه بالطواف والظاهر أنه قطعة أخذها إبراهيم من جبل هناك يسمى أبا قبيس كما يستخلص من هذه الرواية (إن الله استودع الحجر أبا قبيس حين أغرق الله الارض زمن نوح عليه السلام وقال اذا رأيت خليلي يبني بيتي فأخرجه له فلما انتهى ابراهيم لمحل الحجر نادى أبو قبيس ابراهيم فجاء فحفر عنه فجعله في البيت) فهذه الرواية على مافيها من الاوهام وكذا غيرها يدلنا على مأخذ هذا الحجر وتاريخه · وقد شوهد أن النبي قبل هذا الحجر وكذا الركن اليماني ولم يقبل الركنين الآخرين لانهما ليسا على قواعد ابراهيم · وهذا العمل هو ضرب

من ضروب العبادة والتذلل لله تعالى وحده كوضع الساجد وجهه على الارض خضوعا لله وانكسارا مع العلم بأن الحجر والارض لاقيمة لهما بالمرة ولولا سقوط منزلتهما لما كان هناك تعبد في وضع الوجه عليهما . ولم يأت معنى التعبد إلا لوضع أشرف عضو في الانسان على هذين الشيئين الحقيرين تعظيما لله كمن يقبل أعتاب الملوك أو ذيل ثيابهم ولذلك قال عمر رضي الله عنه (والله إني أعلم أنك حجر لاتضر ولا تنفع ولولا اني رأيت رسول الله يقبلك ماقبلتك) ومع كل ذلك فليس التقبيل ركنا من أركان الحج ولم يقل أحد بوجوبه ولم يرد للحجر الاسود ذكر في القرآن الشريف مطلقا ولا لبئر زمزم ولا للشرب منها فلتدع مايهذي به الاغبياء الجاهلون من الطاعنين في الاسلام

بقي علي لايفاء موضوعنا حقه أن أتكلم على مسألتين أخريين لورود شيء كثير عنهما في السنة وعدم ورود شيء في الكتاب

(المسألة الاولى — قتل المرتد) إنه لم يرد أمر بذلك في القرآن فلا يجوز لنا قتله لمجرد الارتداد عن الاسلام لأن لكل حر في أن يعتقد ما شاء (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) وأما ما حصل من ذلك في صدر الاسلام فقد كان لضعف المسلمين وقلة عددهم بالنسبة لأعدائهم والخوف من افشاء أسرارهم وإعانة العدو عليهم وتمكينه منهم وتشكيك ضعاف المسلمين في دينهم أو لأن المرتد كان ممن آذاهم وأبيح لهم دمه فلما تظاهر بالاسلام كفوا أيديهم عنه ثم لما عاد عادوا اليه فهذه أسباب قتل المرتد في العصر الاول . أما الآن فان وجدت ظروف مثل تلك وحصل مثل ما كان يحصل جاز لنا قتله لانه صار ممن حارب الله ورسوله وسعى في الارض بالفساد . قال الله تعالى (انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا) الآية

وأما قتل المرتد لمجرد ترك العقيدة فهذا مما يخالف القرآن الشريف (لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) وورد في الحديث ما معناه « اذا روي لكم عني حديث فاعرضوه على كتاب الله فان وافق فاقبلوه وان خالف فردوه »

(المسألة الثانية — رجم الزاني المحصن) حد الزنا في القرآن الجلد . وقد أنكر بعض المعتزلة الرجم وكذا جميع الخوارج واستدلوا على ذلك بقوله تعالى (فان أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب) أي ان الامة اذا زنت بعد الاحصان تعاقب بنصف

عقاب المحصنة من الحرائر أي تجلد خمسين جلدة . فقالوا لو كان عقاب المحصنات الرجم لكان حد الاماء نصف الرجم والرجم لا نصف له . ثم ان القرآن تكلم عن الزنا وحده وعن رمي المحصنات به وعقوبته وعن اللعان وكل ذلك بايضاح تام فلو كان الرجم واجبا لذكره الله تعالى في القرآن فهذه حجة هؤلاء القوم . والذي نقوله نحن إن الامام إذا وجد أن الامة قاسية غليظة القلوب منتشر فيها الفسق والفجور ولا يردعها الجلد ولا يؤثر فيهم لخشونتهم وشدتهم وخاف على الامة الضعف والانحلال والفساد جاز له والحالة هذه أن يقرر الرجم عقوبة للزنا وأن يعتبر من أقدم عليه وهو محصن مفسدا في الارض عاصيا لله محاربا له ولدينه عملا بالآية السابقة . وعذر من لم يكن محصنا . أو إن تكرر منه الذنب ولم يردعه الجلد جاز للامام أن يقدر الرجم على غير المحصن أيضاً بعد عدد مخصوص من وقوعه في الاثم . والخلاصة أن المسألة تركت ليتصرف فيها أولو الامر وليتشاوروا فيها فان كان الفساد في الامة قليلا وردعها الجلد فيها وإن كان المفسدون كثيرين ولا يبالون بالجلد ولا بالدين أوجبوا قتلهم .

وكذلك ترك القرآن كثيراً من الحدود وأطلق الكلام في قطع يد السارق والظاهر منه أن القطع لا يجب لاول مرة بل يستتاب السارق فان تاب وأصلح وإلا قطعت يده .

فهذه أفكاري في هذا الموضوع أعرضها على عقلاء المسلمين وعلمائهم وأرجو ممن يعتقد أني في ضلال أن يرشدني إلى الحق والا كان عليه اثم كبير

الخاتمة

إذا تقرر ذلك المذهب فعلى المسلم الآن يطالع كتاب الله تعالى مطالعة إمعان وتدقيق وعمل فكر وان يستنتج جميع ما يجب عليه في دينه ودنياه من اعتقادات وعبادات وأخلاق ومعاملات فان في هذا الكتاب الهداية والكفاية وسعادة الدنيا والآخرة

ومن اقتصر عليه علم سخافة من عاب الاسلام بأشياء ألصقت به وليست منه . فاللهم اهدنا بكتابك . وأفهمنا من أسرارك . وافتح أعيننا وأنر بصائرنا . انك هادي الضالين مرشد الحائرين آمين . اه

(المنار) قد سبق الكاتب إلى هذا الموضوع غير واحد من المسلمين الباحثين من أشهرهم ميرزا باقر الشهير الذي كان تنصر وصار داعية لمذهب البروتستنت ثم عني بدراسة سائر مذاهب النصرانية ومذاهب اليهود ثم عاد إلى الاسلام باجتهاد جديد ودعا اليه في انكلترا بغيرة وعزم شديد، وقد ذاكرني الكاتب في هذا الموضوع مرارا وكذلك رفيقه الدكتور عبده افندي ابراهيم فأشرت عليه بعد البحث في كثير

من جرأته أن يكتب ما رآه العرض في المنار على العلماء والباحثين فننظر ماذا يقولون ثم نقفي عليه بما عندنا فنحن لندعو علماء الازهر وغيرهم لبيان الحق في هذه المسألة بالدلائل ودفع ما عرض دونه من الشبهات فان المحافظة على الدين في هذا العصر لا تكون بالنظر في شبهات الفلسفة اليونانية أو شذوذ الفرق الاسلامية التي انقرضت مقامها وانما تكون باقناع المتعلمين من أهله بحقية الدين ودفع ما يعرض لهم من الشبهات على أصوله وفروعه الثابتة وأهونها ما عرض للمعتقدين المستمسكين ككاتب هذه المقالة فاني أعرفه سليم العقيدة مؤمنا بالالوهية والرسالة على وفق ما عليه جماعة المسلمين مؤديا للفريضة وانما كان اقناع مثله أهون على علماء الدين لأنه يعد النص الشرعي حجة فلا يحتاج مناظره لاقناعه بالالوهية والرسالة ليحتج عليه بنصوص الوحي

واني أعجل بأن أقول ان أظهر الشذوذ في كلامه ما قاله في مسألة الصلاة فان النبي صلى الله عليه وسلم مبين للتنزيل بقوله وفعله كما ثبت بنص القرآن وقد تواتر عنه ما يفيد القطع ... اليوم فرضا والكاتب لم يستغن عن السنة في بيان ... وغير ذلك ولا اطيل في المسألة الآن وانما ذكرتها لئلا تعلق شبهتها بأذهان بعض القراء فيطول عليهم العهد بالجواب عنها وسنفصل القول في الموضوع بعد أن ننظر ما يكتبه العلماء من بيان ما يجب عليهم او السكوت عنه ونحب أن يكون معظم ما يكتب في أصل المسألة لا في الامثلة التي اوردها والله الموفق

الرد على الشيخ بخيت

رغب الينا ثلاثة نفر أن نكف عن الرد على الشيخ بخيت أحدهم صديق لنا في القاهرة يرى ان كل ما يكتب في المنار أنفع من هذا الرد فينبغي اختيار الانفع وتقديمه على ما دونه. والثاني أحمد افندي وجدي أحد طلاب مدرسة الحقوق كتب الينا من السويس كتابا أثنى فيه على المنار وذكر من فوائده ما ذكر ورأى ان هذا الرد من المسائل الشخصية التي لا تليق به ولا نرتاب في اخلاص هذين الناصحين والثالث مجهول أرسل الينا رقيما من الاسكندرية كله سباب وشتائم وحكم على قلبنا وسريرتنا وعما قاله ان الشيخ بخيتا اعترف في رسالته الثانية بأنه أخطأ ولكنه أحب أن يداري خطأه ويموهه فكان يجوز بعد هذا ان نعود الى

يان فضيحته أو ما هذا معناه ولولا هذا المعنى لم نذكر هذا الكاتب الجبان السباب فبدأ بالجواب عن هذه الكلمة وان لم يستحق كاتبها جوابا فنقول لو أن الشيخ بخيتا اعترف بخطئه في قوله ان خليفة المسلمين يجوز أن يكون كافرا و بأن حديث ابن ماجه الذي احتج به لا يحتج به لأن سنده لا يصح ومتنه لا يدل على ما قاله في رسالة السكورتاه لكففنا عن الرد عليه وإن نبزنا بألقاب الجهل والحسد و . . . . فاننا لسنا ممن ينتصر لنفسه دون الحق وقد سبنا كثير من السفهاء في الجرائد وسعى كثير من المفسدين في ايذائنا ولم نقل في أحد منهم كلمة سوء انتصاراً أو انتقاماً وقد هضم أناس حقوقنا المعنوية وأكل آخرون مالنا بالباطل فلم نقل في أحد منهم كلمة ولكننا قد انتقدنا غير مرة على اصدقائنا وفي هذا الجزء وما قبله شيء من ذلك

وفي مقابلة هؤلاء الثلاثة نرى كثيرين من أهل الازهر وغيرهم من أهل الرأي والفضل قد استحسنوا هذا الرد وعدوه من أفضل طرق الاصلاح وخدمة العلم في زمان كثر فيه التهجم على التأليف واعتادت الجرائد مدح كل تصنيف لا سيما اذا كان لصاحبه حظ من الشهرة وكفل من الجاه وفي ذلك من الغش للامة ما فيه ، وما زال المشتغلون بالعلم يرد بعضهم على بعض ونحن الآن أحوج الى [illegible] المصنفات الضارة بالطبع من عموم الضرر والافساد

تعود الناس عندنا قراءة رد بعض الجرائد على بعض في مسائل السياسة والأخبار ولا يرون مجرد الرد دليلا على العداوة الشخصية ولم يتعودوا مثل هذا في مسائل العلم والدين وان كان ضرر الخطأ في هذا أشد فلذلك توهم بعض الناس ان بيننا وبين الشيخ بخيت عداوة لا سيما بعد نشر ما نشر في المؤيد فاسرع الينا بعض مبغضيه يذكرون لنا من السيئات ما لا نحب أن نسمعه ان صدقناهم فيه فكيف نرضى ان نذكره في المنار ومنه ما يتعلق بالمعاملات والمال وليس من شأن المنار الخوض في ذلك

ثم ان المنار لم ينشأ للبحث في الدين فقط كما نسمع تارة بعد تارة من المفتاتين علينا بأهوائهم ولكن باب الأخبار الذي فتح فيه من أول نشأته لا يدخل فيه الا ما كان فيه عبرة وموعظة للامة

فليعلم القاصي والداني أنه لا عداوة بيننا وبين الشيخ بخيت وانا لا نحب ان نسمع عنه شيأ مكروها وأن ما يتفق لنا سماعه نطويه ولا ننشره الا أن يكون مما يؤيد حجتنا في المسائل العلمية والدينية التي تناظره فيها اذ لا محاباة في العلم والدين

هذا وقد سبق الى فهم صاحب المؤيد ان ما كتبناه في الجزء الماضي يشعر بأنه هو الذي

أخبرنا بأن الشيخ بخيتا هو الكاتب لما كان نشر في المؤيد بامضاء (ثابت بن منصور) فكتبنا اليه مبينين أننا لم نقصد ذلك وأن العبارة لا تدل عليه بل فيها ما يدل على أن ذلك كان معروفا لغير واحد . ونزيد الآن أنه كان في المقالة التي نشرت يومئذ في المؤيد ردا على ثابت بن منصور اشارة الى أن الشيخ بخيتا هو الكاتب لها لا أزال أذكرها وهي: لو أن الشيخ ثابت بن منصور ركب مركبة لتنقله من الخرنفش الى الازهر وكان سائقها لا يعرف جغرافية القاهرة فسار به الى جهة باب الحديد ما كان يفوته الدرس: اوما هذا معناه فذكر خروجه من الخرنفش كان اشارة من الكاتب الى ان ثابت بن منصور هو الشيخ بخيت . وانا نعرف كثيرين كانوا يعلمون ذلك ومنهم بعض اساتذة المدارس الاميرية

كان المقصود من كتابي الى المؤيد ان أبرأ من اتهام صاحبه بأنه هو الذي اخبرني بأن ثابت ابن منصور هو الشيخ بخيت وليس فيه كلمة تشعر بانتقاد الشيخ بخيت وانظر ما كتبه هو الى المؤيد فانا ننشره شاهدا من العبرة في اللفظ والفحوى وكثرة الادب وقلة الدعوى ولفائدة تذكر بعد وهو

بيان حقيقة

صاحب المؤيد الاغر سعادتلو افندم حضرتلري

وبعد فاني أرجو نشر ما يلي بجريدة المؤيد إظهارا للحقيقة ودحضا لما افتري به علينا ونشر نحوه بها

قد رأيت بعددي ٤٩٥٦ و ٤٩٥٧ من جريدة المؤيد ان صاحب مجلة المنار قد ادعى انني كتبت رسالة لجريدة المؤيد ونشرت بها سابقا تحت امضاء (ثابت بن منصور)

وحيث أن هذه الدعوى باطلة عاطلة وتضاف الى غيرها من دعاويه علينا وعلى غيرنا ولا يستطيع أن يأتي بواحد يزعم اني خبرته باني كاتب الرسالة المذكورة ولا أن يقيم حجة ولو أوهى من بيت العنكبوت على ذلك

وحيث أنه يجوز أن يكون المتعصبين الينا قد افترى ذلك علينا ليشوه وجه الحقيقة الساطعة «يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتم نوره»

ويمكن المؤيد أن يراجع الحقيقة ليعلم اني لم أكتب له هذه الرسالة كما أنه لم يسبق لي اني كاتبت المؤيد ولا غيره من الجرائد في شيء ما أصلا فقد جئت

الى جريدتكم الغراء بهذه السطور الوجيزة لنشرها دحضا لتلك المفتريات . ولو أني كتبت أو أكتب الى جريدة لكتبت بامضائي وحاشا أن أكتب بامضاء مجهول مستعار فاني ممن يعتقد أن التجهيل جهالة لا يرضاها لنفسه عاقل ولا يقدم عليها الاخائف أو جاهل ولكن الدعاوي المختلفة على الناس قد عمت بها البلوى سلفا وخلفا حتى قال الشاعر قديما

لي حيلة فيمن ينم وليس في الكذاب حيلة
من كان يخلق ما يقو ل فحيلتي فيه قليلة

وفقنا الله للصدق في القول والاخلاص في العمل ووقانا شر الخطأ والخطل فانه سبحانه بيده العصمة وتمام المنة والنعمة كتبه محمد بخيت المطيعي
الحنفي بالازهر

(المنار) كنت أتمنى لو علم الشيخ بخيت موقع كتابته هذه عند أهل الفهم والمعرفة بالكتابة وما ذا قالوا في نقد بعض المفردات والاسلوب الذي كتبه من الحكمة ولكن [illegible] في كلامه . ونقول اذا كان الشيخ نفسه يجوز أن يكون بعض المتعصبين له (أو عليه) قد افترى عليه ذلك وأخبرنا وصدقناه فلماذا نجزم بأننا نحن الذين افترينا عليه هذه الفرية

هذا مالا ينبغي ان نطيل فيه وأهم ما أقصد بنشر رسالته هذه بيان أنها تدل على رجوعه عما كان يقوله في دروسه ومجالسه في شأن الكتابة في الجرائد . فقد بلغنا من طرق كثيرة أنه يقول بأن الكتابة في الجرائد محرمة لأن الجرائد عرضة للاهانة واهانة ما يكتب فيها محرم لاسيما اذا كان فيه اسم من أسماء الله تعالى أو أسماء أنبيائه وملائكته أو شيء من القرآن أو الاحاديث . وها نحن أولاء نراه كتب في جريدة كتابة مشتملة مع اسم الله تعالى على شيء من كتابه العزيز فان كان ينكر أنه قال بتحريم الكتابة في الجرائد حتى فيما هو دفاع عن الاسلام وتأييد له كالرد على هانوتو (مثلا) فانا نسلم له انكاره ونحسب الناقلين ذلك عنه أن يعرفوا أيهما الصادق كما عرف الناقلون عنه أنه هو الذي كتب بامضاء ثابت بن منصور أيهما الصادق . وان ادعى ان رأيه واعتقاده قد تغير فانا نسلم ذلك ونشكره له .

هذا وقد ضاق هذا الجزء عن بقية الرد عليه في مسألة الامامة وموعدنا الاجزاء الآتية

﴿ رأي في اللغة العربية ، واغلاط الكتاب ﴾

وعدنا في الجزء الماضي ان نبين شيئا مما خالف القياس فيه جبر أفندي ضومط تساهلا في القياس وحبا في سعته لا جهلا ولا ضعفا في اللغة وفنونها وانا نقول قبل ان نورد ما لا مندوحة لنا عن إيراده ان مثل هذه المخالفة والخطأ مما نراه في كلام جميع كتاب العصر الذي نطلع عليه ولا أستثني النقادين الذين بذلوا جل عنايتهم في التحرير والتصحيح وانا أقرّ بانني كثيرا ما أراجع بعض مباحث المنار السابقة فأجد فيها من الغلط ما أعلم ان علته السهو العارض أو الجهل السابق لا مجرد تحريف الطبع وأكثر ما يقع لنا من ذلك استعمال كلمة عامية أو جمع غير قياسي أو تعدية فعل بما لم تعده به العرب ونحو ذلك مما يكثر في الجرائد والمطبوعات المصرية ونقرأه كل يوم فيعلق منه باذهاننا ما يعلق على انتقادنا له فيسبق الى أقلامنا . أعتذر بهذا عن نفسي وعن غيري من العارفين باللغة وأنى لمثلي أن يسلم من مثل هذه الاغلاط الفاشية وهو ممن يكتب المقال فيلقيه الى عمال المطبعة ورقة ورقة من غير ان يعيد اليه النظر أو يقرأ منه سطرا ابتداء التصحيح والتحرير وأما تصحيح الطبع فانه يشغل صاحبه عن [illegible] بفهم ما يقرأ كأن قوة ذهنه كلها توجهت الى النظر في صور الكلم ومحاولة تطبيقها على الاصل الذي طبع المثال الذي يراد تصحيحه منه

أقول اني لم أسلم من الغلط ولم أر أحدا من كتاب العصر سلم منه ولكن أصحاب الملكات القوية والاطلاع الواسع في اللغة يقل غلطهم جدا حتى ان العالم النقاد ليقرأ لاحدهم عدة فصول لا يجد فيها غلطة وهؤلاء قليلون في كتابنا اليوم وأكثرهم من لا تقرأ لاحدهم بضعة أسطر الا ويعثر ذهنك بغلطة ويرتبك فهمك عند جملة ولا أرى من الصواب اضاعة الوقت في الانتقاد على هؤلاء ولكن الانتقاد على هفوات الكتاب البارعين والعلماء الراسخين ، وعلى المتوسطين بينهم و بين أولئك المتطفلين ، هو الذي يحيي اللغة و يرقى بها الى أعلى عليين ، وإعلاء شأن اللغة واجب في نفسه لا ينسخه وجوب انتقاد المصنفات من جهة موضوعها ومسائلها فاذا قام بهذا قوم وبهذا آخرون رجي لنا ان نرتقي في العلوم وفي اللغة التي تؤدى بها العلوم ولكن جبر

أفندي لا يحفل بانتقاد اللغة بل يكتفي بأن يكون ما يكتب مما يفهمه القارئ وإن مزج بالالفاظ العامية التي ليست من اللغة وبالاغلاط النحوية وأتى من أساليب العرب وهذا هو ما ننتقده عليه ونقول انه يجب على كل كاتب أن يتبع أئمة اللغة وفنونها فيما قرروه فلا يقيس على السماعي ولا يخرج في القياس عن حدوده ولا يدخل الكلمات العامية المحضة في كتابه ولا بأس بغير المحضة وهو ما كان عربي الاصل وهو أكثر كلامهم على تحريف فيه يسهل تصحيحه. ذلك ان التساهل وترك الامر فوضى للكاتبين بدعوى العناية بالمعاني مما يفسد اللغة بما يجرئ الجهلاء والضعفاء على التأليف مع كثرة غلطهم ودخيلهم ويثني همة غيرهم عن التحصيل والاتقان

يرى جبر أفندي ضومط ان هذا التساهل مما نحتاج اليه ونحن نمنع ذلك على اطلاقه كما علم من الجزء الماضي وانما نريد ايراد بعض ما وقع له من الخطأ وان كان لا يكاد يسلم منه أحد من الكاتبين لأنه لا حاجة اليه يقال ينبغي أن نجيزه للحاجة وان في الصواب الذي لا حرج فيه مندوحة عنه وليعلم الذين ينتقدون بعض عباراته في كتبه ان جل ما يرونه فيها خطأ يراه هو صوابا فهو لم يأته عن جهل (حاشاه من ذلك) فلا أريد بما أورده من الامثلة تحرير مسائلها والجزم بأنه لا يمكن تأويل شيء منها ان أريد الا أنه خالف القياس المعروف لمحض التساهل من غير حاجة اليه

أول ما خطر في بالي مما انتقد عليه في كتبه قاعدته التي بنى عليها كتاب فلسفة البلاغة وهي على ما أذكر (الاقتصاد على فهم السامع) فالاقتصاد لا يتعدى بعلى والمعنى المراد من القاعدة لا يفهم منها بذاتها بل بما شرحها به ولو قال التوفير بدل الاقتصاد لكانت العبارة صحيحة اذ يقال وفر عليه وان لم تخل من توسع في افادة المعنى المراد هو مما يعهد في المواضعات بل لو قال (القصد في كدّ ذهن السامع) لتم له ما أراد ولم يعد الفعل بما لا يتعدى اليه في لغة العرب فكل عالم باللغة يفهم هذه العبارة لاول وهلة من غير كد للذهن ولكن عبارته لا تكاد تفهم مع كد الذهن الا بعد الوقوف على ما فسرها به فيا لاخطأ

فيهمو الذي يتفق مع القاعدة ومثله من يعلم ان اقصد لايتعدى بعلى ولكنه التساهل الذي اتخذه مذهبا

ومن مخالفة القياس في مقالة (انتقاد فتاة مصر) قوله (كما في ص ٥٤٥ من المقتطف) : والتقحم فيها على الحراب : لا يقال في اللغة تقحم عليه كما يقال هجم عليه وانما قالوا تقحم الفرس بصاحبه اذا ند به فلم يضبط رأسه واذا ألقاه راكبه فكان ينبغي ان يقول : وتقحما أو تقحمها بنا في الحراب :

ومنها قوله في ابتداء كلام (أولا الانتقاد النحوي) ثم قوله (ثانيا الانتقاد البياني) الخ وهو يكثر من مثل هذا في كتبه تساهلا في مجاراة كتاب الجرائد وأمثالهم وهذا غير معهود في الكلام العربي الصحيح أو الفصيح ولا يمكن اعرابه الا بتكلف لاحاجة اليه لمكان الاستغناء عنه بقولنا (الاول كذا . الثاني كذا) وقد استعمله في اثناء الكلام كما يستعملونه ومنه قوله (في ص ٥٤٥) وفيه مثال آخر : وانها أجدر كتاب بأن تتبجح بأن تنصح ... أيهم شباننا وطلبة مدارسنا يقرأونه أولا لما فيها من حسن الاسلوب ودقة التعبير ... وإني أجزم بانه لولا رأيه الذى ذكرت لما سقط من قلمه مثل هذه الجملة التى لا تكاد تنطبق على قاعدة فيما أرى ولا أظن ان العالم بالعربية في الهند وبخارى وروسيا وتركيا يفهمها كما يفهمها من ألف هذا الاسلوب واعتاد قراءة مثله من سوري ومصري

ومنها ابتداؤه الكلام بالعطف كقوله « واكثر كتابنا » وادخال قد على الفعل المنفي كقوله : قد لا يعد ، قد لا يعقل ، قد لا تخلو ، وكان يمكنه ان يستغني عن الواو ويستبدل ربما بقد لافادة التقليل ولكنه يكتفي باستعمال الناس مجوزا وقد استعمل المناطقة قد مع النفي في القضايا الشرطية السالبة وهو يحتج بمن دونهم في الاستعمال كابن الفارض وابن عابدين

ومن المفردات قوله (في ص ٥٤٧) « صفيف الاحرف » وكلمة صفيف لم يتفق عليها عمال المطابع فنقول انه اتبع العرف وان كان عاميا ولا هي من الكلمات التي لا يوجد في العربية مايغني عنها اذ يمكن ان يقال مرتب الحروف أو جامع الحروف — وعامة المصريين يقولون جميع ومنهم من يكتبها جماع بصيغة المبالغة —

ومنها قوله (في ص ٥٥٢) «مقاسة» والصواب مقيسة ولعل هـذا من السهو أو غلط الطبع ومثله قوله (ص ٥٥٤) بصوعٍ بالصاد

وأما الالفاظ التي صححها وتمحل لجعلها قياسية فلاحاجة الى استعمال تكاتفوا منها مع كثرة ماورد في معناها وقوله في تعليل قياسها على تظاهروا : إن وضع الكتف للكتف في التعاون أقرب للفهم لانه أ كثر مشاهدة من وضع الظهر للظهر : فيه نظر اذ لانسلم ان معنى تظاهروا في الاصل وضع كل ظهره الى ظهر الآخر والاظهر ان معناه كان كل منهم ظهيرا للآخر أي معينا والظهير المعين والقوي الظهر ولعل هـذا هو الاصل ولما كان قوي الظهر من الابل والدواب مما يعتمد عليه في الاعانة سمي المعين ظهيرا - ويجوز ان يكون من المظاهرة بين الثوبين ونحوها أي المطابقة بينهما لان المتظاهرين يكونان كشيء واحد أو هو من حماية الظهر وهو معهود عندهم فمعاونك يمنع عنك من ورائك وانت تمنع عنه من الامام من حيث يمنع كل [illegible] الظهر ولكنه أظهر في التعاون . ومن ماشاه كتفا الى كتف لا يفهم من [illegible] ماشاه الا انه يمنع عنك ويعاونك كما يفهم مما تقدم .

وما قاله أيضا في تصحيح استعمال لفظ العائلة بمعنى الآل أو العشيرة غير ظاهر فان العاقلة وصف لمحذوف معروف أي الجماعة التي تعقل ابل الدية عن القاتل من عشيرتها فاذا كانت العائلة من عال عياله بمعنى كفاهم معاشهم ومأنهم يكون معنى الكلمة : الجماعة العائلة أي المنفقة : وانما المنفق هنا واحد وهو العائل والمنفق عليهم هم الجماعة أي العيال ومثل هذا يقال في تعليله الآخر ولو قيل ان الكلمة محرفة عن العاقلة بابدال القاف همزة كدأب العوام لم يكن بعيدا

هـذا ما يأتي به التساهل وهو اذا كان سهلا في نفسه ويمكن تأويل بعضه فهو عظيم من عالم يعد من أوسع علماء اللغة اطلاعا في هذا العصر فاذا تقول في كتابة جماهير المعاصرين الذين لانكاد نفهم كلامهم لولا معرفتنا باللغة العامية على ان منه ما لا يفهم منه الغرض المجمل الا بمعونة القرائن . فاذا كان صديقنا يجعل المعيار في جيد الكتابة ورديئها فهم القارئ فعليه ان لاينسى ان العبرة

بالقارىء العارف بالعربية الصحيحة المدونة المقروءة دون العامية التي تختلف باختلاف البلاد. فاذا كان فهم المصري لايقف في فهم قول بعض الكتاب في بعض الصحف « المرأة التي عندها أطول شعر من غيرها » فان فهم الحجازي والنجدي والعراقي وكذا الاناطولي والقوقاسي ونحوهما من الاعاجم الذين تعلموا اللغة من الكتب لايدرك المراد منه مهما كد ذهنه ولعل أقرب ما يخطر لامثال هؤلاء بعد طول التأمل ان معنى الجملة « المرأة التي يوجد عندها في الدار مثلا أطول شعر هو من شعور غيرها لامن شعرها هي » وانما أراد الكاتب أن يقول « أطول النساء شعرا » فمن تأمل هذا جزم بأنه لايجوز لنا ان نخالف القواعد والنقل في اللغة — مفرداتها وجملها وأساليبها — الا لضرورة يقدرها علماء هذا الشأن قدرها . واني أميل الى مخالفة المتقدمين في بعض ماقالوا انه سماعي ولكنني لاأجيز لنفسي الانفراد بذلك واستعماله لغير ضرورة حتى يوفق الله علماء هذه اللغة لتأليف جمعية تنهض [illegible]

كتاب مرجليوث في النبي صلى الله عليه وسلم

ألف الدكتور مرجليوث الانكليزي المستشرق كتابا بلغته في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم قال في مقدمته انه يعد النبي محمداً من أعاظم الرجال وأنه حل معضلة سياسية هي تكوين دولة عظيمة من قبائل العرب وانه يجله ويؤدي له مايستحقه من التعظيم والتبجيل ولا يقصد بتأليف كتابه الدفاع عنه ولا ادانته كما فعل غيره من كتاب المسلمين أو النصارى فليس من غرضه تفضيل الدين الاسلامي على غيره ولاتقبيحه والطعن فيه. ومن علم ان هذا المؤلف عرف اللغة العربية معرفة قلما يساويه أحد من الافرنج فيها واطلع على كثير من كتب المسلمين يظن ان فهمه للاسلام وتاريخه أدق من أفهامهم فهو أجدر بالقدرة على بيان الحقيقة ولكن قراءة بعض ما كتب تكفي للذهاب بهذا الظن

يحول بين الافرنج وفهم الاسلام وتاريخه أمور اذا سلم بعضهم من بعضها فيندر ان يسلم منها كلها أحد (منها) تأثير ماتربوا عليه ونشئوا فيه من كراهة

الاسلام واحتقار المسلمين تعصبا لدينهم · ومن ختم على شعوره ووجدانه من أول نشأته بخاتم تعسر عليه فضه فان هو فضه تعسر عليه محو أثره وان هو نزع ربقة التقليد وأوى الى ركن الاستقلال الشديد ، وناهيك اذا كانت حياته الاستقلالية تؤيد ذلك الشيء لمصلحة سياسية ، وهذا هو الامر الثاني وبيانه أن حرص الأوربيين على الفتوح والتغلب وشرههم في الكسب من الشرق وماتكن صدورهم من الضغن والحقد على جيرانهم من أهله كل ذلك مما يصرف أبصارهم عن محاسن الاسلام حتى لا يكاد يقع بها الا على ما يمكن انتقاده ، الا أهل الانصاف الكامل الذين انسلخوا من تأثير التقاليد والسياسة ووجهوا كل عنايتهم الى معرفة الحقائق وقليل ماهم

(ومنها) وهو الامر الثالث سوء حال المسلمين في هذه القرون التي ارتفع فيها شأن أوربا في السياسة والعلم والعمران فقد أمسى المسلمون حجة على أنفسهم وعلى دينهم كما بينا ذلك مرارا

(ومنها) ما تعودوه من الجرأة على الحكم في المسائل التاريخية وكل ما هو غير محسوس بالقرائن الضعيفة واستنباط الامر الكلي من امر جزئي واحد واختراع العلل والاسباب للحوادث بمجرد الرأي والتحكم (ومنها) عدم اتقانهم لفهم اللغة العربية وفنونها اللغوية والشرعية لانهم لا يتلقون كل فن عن الاساتذة الماهرين فيه ، وقد ينبغ المحصل لبعض العلوم باجتهاده دون التلقي عن الاساتذة المهرة حتى يبرز على كثير ممن تلقى ذلك العلم ويظهر فضله عليهم ثم هو يخطئ فيما لا يخطئ فيه من هو دونه في التحصيل من أهل التلقي · وقد سمعت رجلا من أعلم المستشرقين بالعربية وأدقهم فهما لها يقول ان المسلمين يقدمون الحديث على القرآن فانكرت عليه ذلك فاحتج بكلام علي لابن عباس (رضي الله عنهما) لما بعثه للاحتجاج على الخوارج وهو «لا تخاصمهم بالقرآن فان القرآن حمال ذو وجوه تقول ويقولون ولكن حاجهم بالسنة فانهم لن يجدوا عنها محيصا» : اه فقلت له ليس المراد بالسنة هنا ما اصطلح عليه المحدثون والفقهاء وانما المراد بالسنة الطريقة التي جرى عليها النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في العمل فهذه هي التي لا محيص

عنها لا انها لا تحتمل التأويل ولا القال والقيل وأما الاحاديث القولية فان التأويل ينال منها كما ينال من القرآن أو يكون أشد نيلا ومن ذلك تأويل عمرو بن العاص الحديث الناطق بأن عمار بن ياسر تقتله الفئة الباغية بقوله : انما قتله من أخرجه ؛ يعني عليا فقال علي اذاً ما قتل حمزة الا النبي صلى الله عليه وسلم فانه هو الذي أخرجه. ولم نعلم أن أحدا من المسلمين قويهم وضعيفهم متبعهم ومبتدعهم فهم من كلمة علي كرم الله وجهه ما فهم هذا العالم المستشرق

وجملة القول ان المنصف من الأوربيين يعسر عليه ان يفهم الاسلام حق فهمه بمجرد الوقوف على فنون العربية والاطلاع على كتبها فاياك بغير المنصف وغير المتقن. وسترى فيما ننتقده على الدكتور مرجليوث أن السبب في أكثر غلطه وخطائه في هذه السيرة هو التحكم في الاستنباط والقياس الجزئي وبيان أسباب الحوادث كما هو شأنهم في أخذ تاريخ الاقدمين من الآثار المكتشفة واللغات المنسية وأقله عدم فهم اللغة [illegible] وعدم الاعتدال فيه وانا نبدأ بخير قوله وأقربه من الصواب

ذكرنا ما قال في مقدمة الكتاب من انه يعد النبي محمدا من أعاظم الرجال الخ

ومما عده له من المآثر غير تكوين دولة عظيمة من قبائل العرب أمران عظيمان أحدهما وجوب حسم المسائل التي تتعلق بسفك الدماء بغير الحرب والثاني أنه اذا ثارت الحرب يجب الحصول بسرعة على النتيجة لأن تمادي الحرب وتكرره بدون جدوى (راجع ص ٥٥) منه

ومما اعترف به ان النبي كان حاذق الكره للشعر والسجع قال ولعل السبب في ذلك أنه لم يتعلمهما ولم يكن للعرب من أساليب الانشاء سواهما : قال هذا في ص ٦٠ وفيه رد على ما نقله في ص ٥٥ عن مايور في قوله ان أهل البدو كانوا كثيري الاهتمام بتعلم البلاغة وطلاقة اللسان في التعبير وأنه ان صح ذلك فلا يبعد ان النبي مارس هذا الفن حتى نبغ فيه : أقول ولو كان النبي صلى الله عليه وسلم عني بذلك أو مارسه لعرف ذلك عنه ولظهر أثره في لسانه في سن الشباب ولكن لم ينقل عنه قبل النبوة شيء من ذلك قط ولم يكن يوصف بالفصاحة

والبلاغة بل كان يوصف بالصدق والامانة وأحاسن الاخلاق فقول المؤلف هو الصواب

ومما خلط فيه الثناء بالانتقاد قوله (في ص ٦٣) ان النبي بين لقومه بيانا موجزا ان الكسوف والخسوف لايكونان لأجل امرئ مهما علا قدره ولكنه مع ذلك عدهما أمرا ذا بال وأنشأ لهما صلاة مخصوصة: ونقول ان في بيانه هذا منقبة غير مجرد بيان الحقيقة وتطهير العقول من الوهم وهي أنه لم يرض ان يعظم شأنه بالباطل فقد قال ذلك يوم مات ولده ابراهيم عليه السلام وكسفت الشمس فظن الناس انها كسفت لأجل موته فأخبرهم صلى الله عليه وسلم ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله أي من دلائل حكمته وقدرته كما بين ذلك في آيات من كتابه كقوله (٥٥: ٣ الشمس والقمر بحسبان) وأنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته والحديث في البخاري وغيره. وأما أمره بذكر الله والصلاة عند الخسوف والكسوف فذلك لان من أغراض الدين [illegible] قدرة الله تعالى وحكمته وتوجيه القلوب اليه بالشكر والدعاء، وتأثر القلوب بذلك عند حدوث مظاهر القدرة والحكمة والنظام أقوى وأكمل ولذلك كانت مواقيت الصلوات الخمس متعلقة بما يحدث من التغير في الطبيعة كل يوم وليلة كطلوع الفجر وزوال الشمس وميلها وغروبها وزوال أثر ضوئها بمغيب الشفق. ولذلك شرع الذكر والدعاء أيضا عند نزول المطر فالدين يرشد الناس الى ذكر الله تعالى عند كل حادث يذكر بقدرته وحكمته كيلا ينسوه فتغلب عليهم حيوانيتهم فيفترس بعضهم بعضا

ومما اعترف به من خصائص النبي صلى الله عليه وسلم وحار في تعليله على اتساع دائرة التعليل عنده كما ستعلم ماقاله في ص ٦٣ ايضا وهو «انه كان له وسائل لمعرفة الاسرار تعجز عن ادراك حقيقتها وان الطبيعة دون الحنكة أعطته موهبة يحسد عليها ألا وهي معرفة طبائع البشر فقلما أخطأ في معرفة أحد بل لم يخطئ قط»: ونحن نقول ان الله الطبيعة هو الذي فضله بذلك ليستعين به على هداية البشر وقد كان ذلك وما النبوة الا تخصيص الهي غايته هداية الناس واخراجهم من الظلمات الى النور فما هذه الحيرة في التعليل، والانقطاع في وسط السبيل

ومما حار في تعليله وهو من هذا القبيل سبب شروع النبي صلى الله عليه وسلم في دعوى الرسالة فقد قال (في ص٧٣): يستفاد من تاريخ اشهر الرجال أن بدأهم بالاعمال العظيمة كان لاسباب معروفة تدعو الى ذلك أما النبي فلا يعلم سبب لبدئه في دعوى الرسالة. ونقول لو كان هذا الامر من قبيل تأسيس الممالك لكان يستحيل أن يقدم عليه العاقل من غير أسباب طبيعية تفيده اليقين أو الظن بالنجاح ولكن النبي صلى الله عليه وسلم قام بهذا الامر العام العظيم الذي هو أكبر من تأسيس مملكة من غير أسباب طبيعية تمهد له النجاح ككثرة المال والمواطأة مع الزعماء والاعوان وسائر أسباب القوة ولا عجب في ذلك فانه كان معتمداً على خالق الاسباب والمسببات ، وفاطر الارض والسموات ، الذي أمره بالدعوة والتذكير، على أنه هو الولي له والنصير،

وقال (في ص٧٤): ان عظمة النبي كانت في أمرين أحدهما معرفة ان الامة العربية تحتاج الى نبي وثانيهما جعل هذه المعرفة ذات أثر ؛ ونقول ان أمر النبوة لم يكن بمثل [illegible] العمل والتدبير والعمل [illegible] ولو كان كذلك لكان الاعتماد فيه على الاسباب الطبيعية وقد تقدم آنفاً أنه لم يكن هناك أسباب اذ لو كانت لعرفت لان الاسباب التي تأتي بأعظم المسببات لاتخفى

وقال في (ص ٨٠) سؤالان لايمكن الاجابة عنهما (الاول) كيف أتت فكرة النبوة لمحمد (ص) ذلك الرجل العربي دون سواه (الثاني) كيف صادفت فيه من الصبر والعزيمة وقوة العارضة ما تحققت به ؟ ولكن نقول كما كان يقول كارليل من أيام «تيوبال كين» كان الماء يصل الى درجة الغليان وكان الحديد موجوداً ولم يوجد من تلك الربوات من الناس من يخترع الآلات البخارية:

ونقول نحن انه ذهل عن الفرق العظيم بين اختراع الآلات البخارية وبين النبوة فان أول من لاحظ أن البخار الماء قوة يمكن استخدامها الرفع والدفع مثلا لم يهتد الى استخدامها في تسيير المراكب البحرية والبرية ونحو ذلك وانما وصل الناس الى هذه الغاية بتدرج بطيء يبني فيه اللاحقون على ماوضع السابقون والنبي ادعى النبوة وجاء بالشريعة فقررها بالكتاب والعمل وجذب الناس فتم له تكوين دين

وشريعة وأمة أحدثت بهدايته دولة قوية ومدنية راقية

وقال (في ص ١٤٤) ان النبي كان يعتقد في نفسه أنه كاحد أنبياء بني اسرائيل: ونقول ان هذا ينافي ما زعم في غير موضع من أنه قام بهذا الامر عن فكر وتدبير وانه كان يتعلم ويستفيد ويدعي انما استفاده من الناس وحي من الله

ومما أعياه تعليله فأحاله على الغيب ما تراه (في ص ٣٦٨) من قوله لابد انه كان للنبي (ص) وسائط سرية لمعرفة الاخبار بسرعة غريبة: يطل بذلك ما كان يقوله صلى الله عليه وسلم بالوحي والالهام ولو كان هناك وسائط لما خفيت عن أولئك الاذكياء الذين كانوا معه وكان ذلك كافيا لانفضاضهم من حوله وعدم بذل أرواحهم في سبيل دعوته

ومما مدح به وأتى قوله في (ص٤٥٨) ان النبي نهى عن التعذيب والتمثيل الذي لم تحرمه أوربا الاحديثا: ونقول انها وان حرمته في بلاده لان الامة قويت على السلطة فيها فهي تستحله أحيانا في غير بلادها فهي لم تتمكن من هذه الفضيلة تمام التمكن. هذا جل ما انتقده وسدده وقاربه وسدد ... من خطأ في تاريخ الحوادث وبيان تعليلها وأسبابها

فتاوى المنار

فتحنا هذا الباب لاجابة أسئلة المشتركين خاصة، اذ لا يسع الناس عامة، ونشترط على السائل ان يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك ان يرمز الى اسمه بالحروف ان شاء، واننا نذكر الاسئلة بالتدريج غالبا وربما قدمنا متأخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه وربما أجبنا غير مشترك لمثل هذا، ولمن يمضي على سؤاله شهران او ثلاثة ان يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

﴿اسئلة من احد علماء تونس عمت بها البلوى﴾

(بيع الدين بالنقد والاوراق المالية)

(س ٣٧) هل يجوز بيع الدين الى بعض البنوك او غيرها بأحد النقدين أو بالاوراق المالية

(ج) لا أعرف نصاً في الكتاب أو السنة يمنع ذلك وهو في القياس أشبه

بالحوالة منه ببيع النقد بالنقد فان المراد من هذه المعاملة ان يقتضي المشتري ذلك الدين لأنه أقدر على اقتضائه وليس فيه من معنى الربا شيء ولكن صورته تشبه بعض صوره الخفية غير المحرمة في القرآن ولذلك يشدد فيه الفقهاء ولمن احتاج الى ذلك أن يأخذ ما يأخذ من البنك أوغيره على أنه دين يحوله بقيمته على مدينه أو بأكثر منه ويجعل الزيادة أجرة أو ما شاء. وههنا مسألة يجب التنبيه لها وهي أن ماورد في الشرع بشأن مايصح من المعاملات المالية ونحوها ومالا يصح لايراد به ان ذلك من حقوق الله على العبد كالعبادات وترك الفواحش وانما المراد بذلك منع التظالم والتغابن بين الناس فكل معاملة لاظلم فيها جائزة وما كان فيها ظلم فهي حرام لاأن تكون برضى المغبون فمعنى صحة البيع ديانة أنه لاظلم فيه بنحو غبن أو غش وحكمه النفاذ وعدم استقلال أحد المتبايعين بفسخه ومعنى بطلان البيع ان فيه ظلما لأحد المتبايعين وحكمه ان لا ينفذ الا اذا رضي المظلوم فاذا أراد فسخه جاز له ذلك. مثال ذلك بيع حمل الحيوان نهي عنه لأنه غرر فاذا اشتريت مافي بطن الفرس باختيارك ورضاك فولدته ميتا ولم ترجع على البائع بالثمن بل سمحت به راضيا مختارا ولو لم الفقه العرف فان الله تعالى لا يعاقبه على أكله. هذا ما كنت أعتقده في مسائل المعاملات كما سبق القول في المنار ولم أكن رأيت فيه قولا لاحد وقد رأيت اليوم نحوه لشيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى. ولاشك ان من يبيع دينه لايكون ظالما لاحد ولا آكلا ماله بالباطل الذي ليس له مقابل وقد يكون تحريم ذلك عليه ظلما له لان الغالب في سبب مثل هذا البيع عجز الدائن عن اقتضاء دينه بنفسه أو توقفه على نفقة كثيرة وكلاهما ضارٌ به هذا وان الدين قد يكون ثمن عروض والامر فيه عند الفقهاء لاسيما اذا بيع بالاوراق المالية أهون والله أعلم

﴿الاوراق المالية نقود﴾

(س ٣٨) هل تعتبر الاوراق المالية التي تحملها الدولة كالمسكوكات في المعاملة نقدا أو عرضا أو شيئا آخر غيرهما

(ج) الاوراق المالية المسماة (بنك نوت) هي من قبيل النقود المسكوكة وأكثرها تضمن بقيمتها المرقومة عليها ذهبا فمن ملك ورقة من ورق البنك الاهلي

في مصر مثلا كان كمن ملك مثل ما كتب على هذه الورقة ذهبا لان الحكومة ضامنة لها تأخذها في كل حين بتلك القيمة كما يأخذها كل من يعتد بتلك الحكومة من التجار وأصحاب المصارف (البنوك) وغيرهم والفقهاء يعدون هذا الورق كوثيقة الدين

(المحلى بأحد النقدين يعد من العروض)

(س ٢٩) هل يوجد في الشريعة السمحة ترخيص للتجار في مسألة المحلى بأحد النقدين فيعتبر كسائر العروض لكثرة تداوله ورواجه وصيرورته قسما كبيرا من البضائع وعسر العمل فيما تقرر في الفقه بشأنه مع مزاحمة الاجانب (لنا في التجارة وانتزاع رزقنا اذا أبيح لهم ذلك ولم يبح لنا)

(ج) الحلى بالذهب والفضة لا يعد ذهبا ولا فضة في الحقيقة ولا في العرف فهو من العروض بالضرورة وقد رخص بعض العلماء ببيع الحلي بنقد من جنسه مع التفاضل وهو أقرب الى الربا من بيع المحلى . قال ابن القيم في كتاب أعلام الموقعين مانصه :

﴿ فصل ﴾

وأما ربا الفضل فأبيح منه ماتدعو اليه الحاجة كالعرايا (١) فان ما حرم سدا للذريعة أخف مما حرم تحريم المقاصد وعلى هذا فالمصوغ والحلية ان كانت صياغته محرمة كالآنية حرم بيعه بجنسه وغير جنسه وبيع هذا هو الذي أنكره عبادة على معاوية فانه يتضمن مقابلة الصياغة المحرمة بالاثمان وهذا لايجوز كآلات الملاهي وأما ان كانت الصياغة مباحة كخاتم الفضة وحلية النساء وما أبيح من حلية السلاح وغيرها فالعاقل لايبيع هذه بوزنها من جنسها فانه سفه واضاعة للصنعة والشارع أحكم من أن يلزم الامة بذلك فالشريعة لاتأتي به ولا تأتي بالمنع من بيع ذلك وشرائه لحاجة الناس اليه فلم يبق الا أن يقال لايجوز بيعها بجنسها

(١) العرايا جمع عرية وبيع العرايا هو بيع الرطب بالتمر وهما ربويان كالنقد ولكن الشارع أباحه للحاجة اليه لان صاحب التمر قد يحتاج الرطب ولا يكون بيده نقد يشتريه به وكان ذلك يكثر في زمن التشريع

اليه بل يبيعها بجنس آخر وفي هذا من الحرج والعسر والمشقة ما تنفيه الشريعة فان أكثر الناس ليس عندهم ذهب يشترون به ما يحتاجون اليه من ذلك والبائع لا يسمح ببيعه ببر وشعير وثياب، وتكليف الاستصناع لكل من احتاج اليه اما متعذر أو متعسر والحيل باطلة في الشرع وقد جوز الشارع بيع الرطب بالتمر لشهوة الرطب وأين هذا من الحاجة الى بيع المصوغ الذي تدعو الحاجة الى بيعه وشرائه فلم يبق الا جواز بيعه كما تباع السلع فلو لم يجز بيعه بالدراهم فسدت مصالح الناس والنصوص الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم ليس فيها ما هو صريح في المنع وغايتها أن تكون عامة أو مطلقة ولا تنكر تخصيص العام وتقييد المطلق بالقياس الجلي وهو بمنزلة نصوص وجوب الزكاة في الذهب والفضة والجمهور يقولون لم تدخل في ذلك الحلية ولا سيما فان لفظ النصوص في الموضعين قد ذكر تارة بلفظ الدراهم والدنانير كقوله الدراهم بالدراهم والدنانير بالدنانير وفي الزكاة قوله «في الرقة ربع العشر» والرقة هي الدراهم المضروبة وتارة بلفظ الذهب والفضة فان حمل المطلق على المقيد كان نهيا عن الربا في النقدين وايجابا للزكاة فيهما ولا يقتضي ذلك نفي الحكم عن جملة ما عداهما بل فيه تفصيل فتجب الزكاة ويجري الربا في بعض صوره لا في كلها وفي هذا توفية الادلة حقها وليس فيه مخالفة لدليل بشيء منها

يوضحه ان الحلية المباحة صارت في الصنعة المباحة من جنس الثياب والسلع لا من جنس الأثمان ولهذا لم تجب فيها الزكاة فلا يجري الربا بينها وبين الأثمان كما لا يجري بين الاثمان وبين سائر السلع وان كانت من غير جنسها فان هذه بالصناعة قد خرجت عن مقصود الأثمان وأعدت للتجارة فلا محذور في بيعها بجنسها ولا يدخلها «إما ان تقضي واما ان تربي» (١) الا كما يدخل في سائر السلع اذا بيعت بالثمن المؤجل ولا ريب ان هذا قد يقع فيها لكن لو سد على الناس ذلك لسد

(١) هذه العبارة مقولة وهي كلمة آكلي الربا الجلي المحرم بنص القرآن كان يكون لاحدهم دين مؤجل على آخر فاذا جاء الاجل قالها له ومعناها اما أن تعطيني الدين واما ان تزيد فيه لاجل الإنساء والتأخير في الاجل

عليهم باب الدين وتضرروا بذلك غاية الضرر

يوضحه أن الناس على عهد نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم كانوا يتخذون الحلية وكان النساء يلبسنها وكن يتصدقن بها في الاعياد وغيرها ومن المعلوم بالضرورة أنه كان يعطيها المحاويج ويعلم أنهم يبيعونها ومعلوم قطعاً أنها لا تباع بوزنها فانه سفه ومعلوم أن مثل الحلقة والخاتم والفتخة لا تساوي دينارا ولم يكن عندهم فلوس يتعاملون بها وهم كانوا أتقى لله وأفقه في دينه وأعلم بمقاصد رسوله من أن يرتكبوا الحيل أو يعلموها الناس

يوضحه أنه لا يعرف عنه أحد من الصحابة أنه نهى ان يباع الحلي الا بغير جنسه أو بوزنه والمنقول عنهم انما هو في الصرف

يوضحه أن تحريم ربا الفضل انما كان سداً للذريعة كما تقدم بيانه وما حرم سداً للذريعة أبيح للمصلحة الراجحة كما أبيحت العرايا من ربا الفضل وكما أبيحت ذوات الاسباب من الصلاة بعد الفجر والعصر وكما أبيح النظر للخاطب والشاهد والطبيب والمعامل من جملة النظر المحرم وكذلك تحريم الذهب والحرير على الرجال حرم لسد ذريعة التشبه بالنساء الملعون فاعله وأبيح منه ما تدعو اليه الحاجة وكذلك ينبغي أن يباح بيع الحلية المصوغة صياغة مباحة بأكثر من وزنها لأن الحاجة تدعو الى ذلك وتحريم التفاضل انما كان سداً للذريعة

فهذا محض القياس ومقتضى أصول الشرع ولا تتم مصلحة الناس الا به أو بالحيل والحيل باطلة في الشرع وغاية ما في ذلك جعل الزيادة في مقابلة الصياغة المباحة المتقومة بالأثمان في المغصوب وغيرها واذا كان أرباب التحيل يجوزون بيع عشرة بخمسة عشر في خرقة تساوي فلساً ويقولون الخمسة في مقابلة الخرقة فكيف ينكرون بيع الحلية بوزنها وزيادة تساوي الصياغة وكيف تأتي الشريعة الكاملة الفاضلة التي بهرت العقول حكمة وعدلا ورحمة وجلالة باباحة هذا وتحريم ذلك وهل هذا الا عكس المعقول والفطر والمصلحة والذي يقضي منه العجب مبالغتهم في ربا الفضل أعظم مبالغة حتى منعوا بيع رطل زيت برطل زيت وحرموا بيع الكسب بالسمسم وبيع النشا بالحنطة وبيع الخل بالزبيب ونحو ذلك وحرموا بيع مد حنطة ودرهم بمد ودرهم وجاءوا بربا النسيئة وفتحوا التحيل

عليه كل باب فتارة بالعينة وتارة بالمحلل وتارة بالشرط المتقدم المتواطأ عليه ثم يطلقون العقد من غير اشتراط وقد علم الله والكرام الكاتبون والمتعاقدان ومن حضر أنه عقد ربا مقصوده وروحه بيع خمسة عشر مؤجلة بعشرة نقدا ليس الا ودخول السلعة كخروجها حرف جاء لمعنى في غيره فهلا فعلوا هاهنا كما في مسألة مد عجوة ودرهم بمد ودرهم وقالوا قد يجعل وسيلة الى ربا الفضل بأن يكون المد في أحد الجانبين يساوي بعض مد في الجانب الآخر فيقع التفاضل

فيالله العجب كيف حرمت هذه الذريعة الى ربا الفضل وأبيحت تلك الذرائع القريبة الموصلة الى ربا النسيئة بحتا خالصاً وأين مفسدة بيع الحلية بجنسها ومقابلة الصياغة بحظها من الثمن الى مفسدة الحيل الربوية التي هي أساس كل مفسدة وأصل كل بلية. واذا حصحص الحق فليقل المتعصب الجاهل ماشاء و بالله التوفيق

فان قيل الصفات لاتقابل بالزيادة ولو قوبلت بها لجاز بيع الفضة الجيدة بأكثر منها من الرديئة وبيع التمر الجيد بأزيد منه من الردي. ولما أبطل الشارع ذلك علم أنه منع من مقابلة الصفات بالزيادة

قيل الفرق بين الصنعة التي هي أثر فعل الآدمي وتقابل بالأثمان ويستحق عليها الأجرة و بين الصفة التي هي مخلوقة لاأثر للعبد فيها ولا هي من صنعه(١) فالشارع بحكمته وعدله منع من مقابلة هذه الصفة بزيادة اذ ذلك يفضي الى نقض ماشرعه من المنع من التفاضل فان التفاوت في هذه الاجناس ظاهر والعاقل لايبيع جنساً بجنسه الا لما بينهما من التفاوت فان كانا متساويين من كل وجه لم يفعل ذلك فلو جوز لهم مقابلة الصفات بالزيادة لم يحرم عليهم ربا الفضل وهذا بخلاف الصياغة(٢) التي جوز لهم المعاوضة عليها معه

يوضحه ان المعاوضة اذا جازت على هذه الصياغة مفردة جازت عليها مضمومة الى غير أصلها وجوهرها اذ لا فرق بينهما في ذلك

يوضحه ان الشارع لايقول لصاحب هذه الصياغة بع هذا المصوغ بوزنه واخسر صياغتك ولا يقول له لاتعمل هذه الصناعة واتركها ولا تقول له تحيل على بيع المصوغ بأكثر من وزنه بأنواع الحيل ولم يقل قط لاتبعه الا بغير

(١) لعله سقط من هنا لفظ «بين» الذي هو الخبر (٢) وفي نسخة الصناعة

جنسه ولم يحرم على أحد ان يبيع شيئا من الأشياء بجنسه

فان قيل فهب ان هذا قد سلم لكم في المصوغ فكيف يسلم لكم في الدراهم والدنانير المطلوبة اذا بيعت بالسبائك متفاضلا وتكون الزيادة في مقابلة صياغة الضرب

قيل هذا سؤال وارد قوي وجوابه ان السكة لا تتقوم فيه الصياغة لمصلحة العامة المقصودة منها فان السلطان يضربها لمصلحة الناس العامة فان كان الضارب يضربها بأجرة فان القصد بها ان يكون معيار الناس لا يتجرون فيها كما تقدم والسكة فيها غير مقابلة بالزيادة في العرف ولو قوبلت بالزيادة فسدت المعاملة وانتقضت المصلحة التي ضربت لاجلها واتخذها الناس سلعة واحتاجت الى التقويم بغيرها ولهذا قام الدرهم مقام الدرهم من كل وجه واذ أخذ الرجل الدراهم ورد نظيرها وليس المصوغ كذلك ألا ترى أن الرجل يأخذ مائة خفافا ويرد خمسين ثقالا بوزنها ولا يأبى ذلك الآخذ ولا القابض ولا يرى أحدهما أنه قد خسر شيئا وهذا بخلاف المصوغ والنبي صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه لم يضربوا درهما واحدا وأول من ضربها في الاسلام عبد الملك بن مروان وكانوا يتعاملون بضرب الكفار او المرادمة

﴿الرخص للمسافر في السكك الحديدية﴾

(س٣٠) هل يجوز للمسافر في السكك الحديدية الجمع بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء ان سافر وقت الظهر أو وقت المغرب وهو يتحقق انه لا يصل الا بعد خروج الوقت ولا سبيل له الى الصلاة في اثناء السفر أم لا بد من الوقوف عند ما تقرر في الفقه في هذه المسألة

(ج) للمسافر في هذه السكك من الرخص ما للمسافر في غيرها لان الشارع لم يشترط في السفر الذي تباح فيه الرخص ما يخرج المسافر في هذه السكك منه، على ان رخصة الجمع بين الصلاتين مما ورد الحديث الصحيح بإباحتها للمقيم فان النبي صلى الله عليه وسلم جمع بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء في المدينة كما في صحيح مسلم وسنن الشافعي وقد أول فقهاء المذاهب ذلك ليوافق مذاهبهم ولكن ابن عباس راوي الحديث قال في تعليل ذلك «لئلا يحرج امته» فعلم أن ذلك رخصة مطلقة تؤتى عند الحاجة اليها

باب التربية والتعليم

المكتوب السابع من أميل الى أمه

في ابتداء العشق وغرور الشاب الغر بالمعشوقة

عن بن في ٢٨ سبتمبر سنة — ١٨٦

لقد كان قولك حقا أيتها الوالدة العزيزة فاني قد خدعت نفسي ولا حق لى في الشكوى على كل حال ممن كنت أحبها لانها لم تكن التزمت لى شيئاً ولا وعدتني الصدق في حبي بل انها بما كانت مغمورة فيه من ضروب التبجيل والتكريم تفضلت فقبلت مني اغتباطاً صنوف اجلالي ودلائل اعظامي وقد كان هذا منها لي تشريفاً كبيرا وأظن أن من كفران نعمتها ان أتهمها بجناني فانه لم يكن من ذنبها ان كنت جاداً [illegible] شاطاء الاهازلا

على أني ان [illegible] على هذا النحو كنت كاذبا فان الصدمة التي [illegible] غروري بها القتها ملاقاة دهش وذهول خيل لي فيها ان السماء خرت على رأسي وصرت كاني في حيز الفناء وانك قد تقولين انك لست أول من ابتلي بهذه الضروب من انكشاف الاباطيل وزوال الاوهام وهو قول لا ريب عندي في صحته غير ان ما ينتاب الانسان لاول مرة في حياته يخيل له انه لم يحصل لاحد غيره في الدنيا فكنت أسائل نفسي هل يمكن أن يوجد في البرية من يبلغ مبلغها في الخيانة أو يلبس الحسن الا نقابا لنفاق وأقول انها لشد ما سخرت مني لسلامة نيتي وسرعة تصديقي .... واحس بقشعريرة القهرة تدب في جسمي حتى تبلغ مخاخ عظامي.

وأول يوم قامت بنفسي فيه الريب على صدقها فررت من المدينة هائما على وجهي كالمجنون أخبط خبط عشواء وقد تعاقبت على بصري في مسيري مشاهد جمة من سنابل الحنطة المدركة، والقنابر المغردة، وما في الهواء من الروح الخافق

تابع ترجمة كتاب أميل القرن التاسع عشر في التربية

وجدا وحبا والكفور والطواحين التي تنكشف للرائي في أمكنة مختلفة من خلال حجب الاشجار وقد مزقتها يد الريح ، وخرير الماء المتدفق من ينابيعه المنحجبة تحت الخضرة والدبكة المتشبعة المنفطرسة واقفة على الدمن وراهمة عقيرتها يرقانها النفاذ في كبد السماء، واسراب العصافير ثائرة متعاقبة في الجو متنافرة ، وغير ذلك من المناظر التي لولا هذه الاحوال لهزت نفسي وشرحت صدري فلم تلفتني عن هذه الفكرة الثابتة في ذهني وهي أنها تمشي

لما رجعت الى المدينة كان الليل قد جن فلمحت شبحا بيسري وجدران البيوت كأنه ظل فلما بلغ منعطف الشارع سقط عليه ساطع نور الغاز المنعكس فرأيت انه فتاة شاحبة اللون رثة الثياب تحمل طفلا على يديها ولست أدري تمام الدراية لماذا خطر بفكري لرؤيتها أنها خدعت ثم هجرت وسألت نفسي سؤالا محنقا هل تنقسم النساء في هذه الايام الي طائفتين طائفة خادعة وطائفة مخدوعة - تأثرت هذه الفتاة بعضا من الزمن [illegible] لا أعرف سره حتى المعرفة فكلما كانت تمر على نور مصباح كنت أتمثل [illegible] خاطر الانتحار وقد كنت من تسخطي لحالتي بحيث اني كنت أود لو أجد السبيل الى عمل من أعمال البر وما عتمت الفتاة ان دخلت في مأزق من حارات ضيقة مظلمة ينتهي الى فناء تكتنفه اطلال دارسة وفي ركن من هذا الفناء بئر سدت فوهتها بغطاء غليظ من خشب مسوس مشقق فرفعت الغطاء بأحدى يديها العاريتين وانكأت بمرفقيها عن فم البئر وأرسلت بصرها في غيابتها وعليها سمة القنوط وفي هذه الساعة تفلت القمر من قبضة السحاب فألقى نوره الاغر على ملامح الفتاة المتوحل وكنت اذ ذاك مختفيا خلف جزء من جدار أتتبع جميع حركات الفتاة المسكينة بامعان لانى لم يكن بقي عندي ريب في أنها قد صممت على الانتحار وكنت أقول في نفسي أقل ما في الامر أني هاهنا لأمنعها منه وما كنت أجسر حتى هذه الساعة ان أظهر لها خشية أن تزيدها رؤيتها لمن شاهدها في هذه الحالة غضاضة وذلة فبعد ان تروت هنيهة كان جبينها الكئيب في اثنائها مسرح الانفعال والاضطراب نظرت الى ولدها وهمهمت بكلمات مبهمة وهي تهز رأسها ثم هرولت داخلة أحد الاكواخ الحقيرة وأغلقت بابه عليها

هذا كل ما علمته ويحتمل ان يكون كل ما سأعلمه من أمر هذه البائسة في حياتي وقد كنت تلك الليلة غير أهل لفعل الخير اذا فرض ان من الخير تنجية نفس من الموت كانت تؤمن بالحب ثم اضطرت الى الكفر به ولعنه

كأني بك تساليني كيف ظهرت لك ألعوبة تهوى امرأة طائشة اجيرة فاستأذنك في تنزيهك من سماع تفاصيل هذا الامر لأنها لا تليق بك ويكفيني في ذلك ان أخبرك بأنها كانت تحرض طالبين او ثلاثة غيري على التقرب منها في وقت واحد بقبول مساعيهم وهذا يقطع النظر عن أمير وورتمبورغي (١) يقال انها تحبه لماله فليت شعري هل أبصر أحد في حياته نظيرة لتلك المرأة

لم يكن هملت (٢) مثلي في سوء الحظ لما كان يقول لمعشوقته أو فيليا: «أيتها المرأة اسمك الجور فان اسم صاحبتي هو الكذب والمكر والغش» . هذا هو التمثال الذي بخرته بخور أماني وجعلت له بين الآلهات العفيفات مكانا وكنت أتمنى لو دنت مني الكواكب فانتزع من [illegible] على انني أمرا يسليني وهو اني لم أدنس الحب في حال جنوني به

فاعلمي يا أماه انه لا يزال من حقي اذا نظرت اليك غير خجل لان خطيئتي انما كانت سوء حكم لا ارتكابا لشيء من الخنا ولكن هذا لا يقلل من استحقاقي لعفوك فاغفري لولدك هفوته حتى يمكنه ان يغفرها لنفسه . اه

﴿ المكتوب الثامن من هيلانه الى اميل ﴾

عن لوندرة في ١١٠ كتوبر سنة ١٨٦—

اعلم ياولدي العزيز ان ما نقع فيه من ضروب الغي هو الذي يهدينا سبيل الرشد وان ما نقترفه من الذنوب هو الذي ينبئنا اذا تألمت منه ضمائرنا بأن لنا

(١) وورتمبورغي نسبة الى وورتمبورغ احدى ولايات المانيا (٢) هملت هو أمير جوتلاند الذي تظاهر بالجنون ليأخذ بثار أبيه الذي قتله أخوه بالسم وقد كتب عنه شكسبير روايته المشهورة وجوتلاند شبه جزيرة بالدينارك عدد سكانها ٩٤٢٣٦٠ نفسا وعاصمتها فيبورغ

في نفوسنا قانونا زاجرا وأن الحكمة في رأيي هي ان نستفيد من كليهما التعلم

لم تدهشني نهاية قصتك وسأتحامى كل التحامي ان أعيب سيرتك فيها لانك قد عبتها بنفسك ولم يكن كل ما كان في وسعي تأديته اليك من نصائح قبل ختامها المحزن ليساوي ماوعظتك به تجربتك الذاتية، ان في أمور الكون لمدلا وان الدهر يضطرها الى أن تظهر للناس على حقيقتها وان كان يلذ لحيلة الانسان ان تزينها بالالوان المموهة وتغشيها بالاستار الحاجبة وبهذا كان الدهر استاذنا جميعا

على اني ان لم أقر لك بأن مكتوبك الاول سبب لي أشد ضروب القلق والحيرة كنت قد كتمتك بعض الحق نعم قد كان لي من الثقة بطيب عنصرك وبما أعرفه فيك من أصول الشرف ما كان يكفيني لتأكد من انك لا تستقل لارتكاب دنيئة ما ولكني كنت أخاف عليك وأنت في هذه السن خدعة القلب وجمحات العجب المفتون وأماني البسالة الخادعة فما يوجب الاسف ان أصدق الناس في الحب وأخلصهم له [illegible] خاطر دسائسه وأما الشبان الذين يتخذون ما عليه الناس [illegible] في [illegible] قلوبهم الجامدة لاتنخدع بكذب الظواهر وهم الذين جعلت لهم الحبات المهيجة كما جعلت الخمور المثلة للسكيرين

تراهم يبذلون من الهمة والنشاط في تحصيل الغبطة أكثر مما يلزم وهم مع هذا في اسوء عيش وانكده هؤلاء الجوالون في ميدان الغرام المتعاملون لدسائسه اعتاضوا عن الحب بظله اعني الظرف والكياسة في معاشرة النساء وان خسة عواطفهم لتدل على خلوهم من الادراك وهم شبيهون عندي بأشجار الصفصاف الجوفاء التى تصادف على حافة السواقي (الانهار الصغيرة) في انها لتعفن قلوبها لم يبق لها حياة الا في قشورها

ان الامم التى لا تجل رجالها نساءها ولا نساؤها اقترانهن غير جديرة بالحرية يدلك على ذلك أن عصور الاستعباد وانحطاط النفوس كانت هي عصور فساد الاخلاق والانهماك في الرذائل فاذا زالت هيبة الدين من النفوس وانعدم احساس الناس بما عليهم من الفروض الكبرى رأيت الناشئين اذا اعوزهم مايضيعون فيه أوقاتهم

يتصيدون الملاذ السافلة فاربأ بنفسك عن هذه الردغة (١) فلا مقر لك فيها

أني ربما كنت أعرف منك بنفسك لانه يتفق كثيرا لمن هم في سنك ان يضلوا فيشطوا في طلب مثال من الواقع لما يتخيلونه من منتهى الكمال فيمن يريدون ان يجعلوها مناطا لحبهم وهو قريب المنال حاضر بين أيديهم. ارى انك فوق حنقك على من غرتك تادم على ان كنت غير صادق في محبا لك فتأمل في باطن ما تحفظه ذاكرتك تجدني قد أصبت المرمى فيما اقول فانك تعلم بوجود ذات من اترابك تفكر فيها ولا تتكلم في شأنها وتذكر ملامح وجهها وابتسامها وجرس صوتها وكل مايتعلق بها حتى ثنيات حللها تمام الذكر وان مثالها الطاهر ليسري سريان الشعاع فوق كتابك اذا فتحته لتقرأ فيه ماصنفه الشعراء وأنت تود لو تشاهد معها كل ما في الكون من الجمال وتسمع جميع ما البرية من الاغاريد وهي التي ينطبق عليها ما تتخيله من معنى الفضيلة وتود من اجلها لو تكون أفضل الفضلاء فتلك الذات هي التي تحبها فان لم تكن تأنس من نفسك شيئا من [illegible] لم تكن حتى الآن الا طفلا ولم يأن لك ان تعتقد في نفسك انك على [illegible] تتعلق هو الذي يرفع النفس ويبعث على طلب الخير وعلى ان يقتضي الحب من عشه لمحبوبه كل مايقتضيه لنفسه منه لان الحب هو انصاف القلب

فاذا تربصت حتى يحصل في نفسك هذا الوجدان الطاهر فاياك ان تدنس اسمه باجرائه على لسانك قبل حصوله والا ندمت فيما بعد أن لوثت شفتيك بالكذب

وقشبان خطأ آخر في الحب وهو أنهم يظنون انه اذا حصل بدسائس ووقائع كالتي تروى في القصص ازدادت لذته وكثر الابتهاج به فليس الامر كما يتوهمون لان في الحب من العظمة الذاتية مايغنيه عن زخارف الخيال. ان الفلاح البار اذا راح الى بيته مساء بعد فراغ عمله وجلس لتناول مرقته وأخذ يلحظ زوجته وهي تغزل أوتخيط بجانب المصطلى ثم يمسح رءوس أولاده غلاظ العضلات مناديا كلا منهم باسمه ويشكر في نفسه زمن ترقبه لزوجته « جنة » يوم الاحد في ظل شجرة الدردار الكبرى في المزرعة ويراها لاتزال غضة الحسن موفورة الشباب كان أبهج

(١) الردغة الماء والطين والوحل الشديد

خيالا اضعافا كثيرة من حظي الإلاهة من الإلاهات الحب الجديدة

الشباب هوس الاماني والاحلام وطور الخيالات والاوهام ثم ان كثرة المطالعة لاثمرة لها في أغلب الاحيان الا افساد حكم القلب، على ان الحب في غاية الغنى عن القصص الخرافية لانه عبارة عن تاريخ لاصح مافي فطرتنا من ضروب الوجدان واشدها استقلالا فويل لمن لا يعشق ويتوله الا في الحلم لانه لايلبث ان ينكشف وهمه اذا حان وقت انتباهه.

يجب عليك قبل اهتمامك باختيار امرأة تحبها ان توجد لنفسك بين الناس مقاما فان كل عمل تعمله في سبيل تحصيل العلم ورفع شانك في نظر نفسك ومغالبة ما للاثرة من أنواع الميل الاعمى وبلوغ ما للانسان من الشرف يفيد المرأة التي ستحبها كما يفيدك وكن واثقا بأن هذا لابعد منسك في حقها كثيرا اذا كان يهمك ان تكون أهلا لاجلالها اك حفظا لشرفك وصونا لعرضك

حاشية : فاني امل أخبرك بأن «بولا» تعلم الطب من أجل أن تقبلها جمعية الطبيبات بلوندرة في عداد هن وكانا محبك . اهـ

(المنار) ليتأمل اللبيب هذا التذكير اللطيف بولا التي تربت مع أميل مثل تربيته بعد بيان من تستحق الحب وبيان حقيقته وغرور الشبان فيه فيالله ما هذه الحكمة في هذه البلاغة

آثار علمية أدبية

(التقريظ)

(فرقان القلوب)

كتيب جديد للشيخ محمد ابي الهدى افندي الصيادي الشهير قال في فاتحته «وأرى ان هـذا الكتاب المستطاب جدير بأن يدرس في مكاتب الاسلام، لينتفع به ان شاء الله الخاص والعام، فبإقرائه ينتفع بالثواب المنتهي، و بتعلمه

ينتفع في دينه المبتدي » ونقول ان موضوع الكتاب مما يفيد المبتدئين لانه في أحكام وحكم أركان الاسلام الخمسة ولكن هناك مانعا من تدريسه وهو ما فيه من اصطلاحات الصوفية المعروفة وغير المعروفة التي يعسر على معلمي المدارس معرفة المراد منها أوبيانه للتلاميذ فاذا نرى في فهم التلاميذ لها واستفادتهم منها ؟ وما قولك في كتاب تذكر فيه العبارة وتفسر بعبارة أشد منها غموضا . مثال ذلك ما نقله عن الشيخ احمد الرفاعي الكبير في بيان حقيقة التوحيد وفسره وهو كما في (ص ٤) «وجدان تعظيم فى القلب يمنع عن التعطيل والتشبيه ومعنى ذلك الوجد ان استدلال العقل وتسلط فهم القلب على ما يسكن اليه الخاطر ويقف عنده السر من البراهين النظرية التى تؤيد سر التوحيد فيعتقد العاقل بسبب تلك البراهين القاطعة وجود الخالق ولا ينصرف رأيه الى التعطيل ولا الى التشبيه »



الظاهر أن هذا [illegible] بيانه له ان معلمي المدارس لا بد أن يقفوا أمام هذه الجملة موقف الحيرة ويعسر عليهم ايصالها الى أذهان تلاميذهم لانهم لا يعقلون وجها لتفسير وجدان التعظيم باستدلال العقل فان هذا الوجدان محله القلب واستدلال العقل أي فكره فى تأليف الادلة النظرية من عمل الدماغ . والقلب يطلق في لغة القرآن على ما يكون به الفكر والادراك وعلى ما يكون به الشعور والوجدان ولعله يرى أن العبارة قد مزجت الاستعمالين فبنى أحدهما على الآخر . ولا شك عندي أن فهمه يقف عند تفسير وقوف السر وتأييد سر التوحيد وتسمية البراهين النظرية براهين قاطعة وجعل نتيجتها الاعتقاد بوجود الخالق مع أنها اقيمت على توحيده ، والكلام في توحيده انما يبنى على التسليم بوجوده، وعدم الانصراف الى التعطيل والتشبيه يصدق بغفلة الذهن عنهما فلا تكون تلك البراهين مفيدة للتوحيد ولا مفسرة لذلك الوجدان . فاذا وقف المدرس أمام هذه العبارة الرفاعية الرفيعة هذا الموقف، فهل يتناسه مع ما بينها به المصنف، اذ قال

« وبيان ذلك ان ينظر في هابطة السرور وهابطة الحزن وحال الانقباض

وحال الانبساط ومسامرة الخاطر ونشأة الحب ووفرة البغض ووارد الرأي وملمسية الفكر والحرص والزهد والحقد والصفح وأمثال ذلك من دقائق الاسرار القالية التي تتدلى الى القلب وتقوم بالعقل ومثلها اللطائف المجردة الخمسة :الشامة والباصرة والسامعة والطاعمة واللامسة كلها موجودة في الوجود غير منكر وجودها وغير مدركة كيفيتها ولهذا السر القاطع والدليل الساطع قال تعالى (وفي انفسكم أفلا تبصرون) فاذا استدل العقل وتسلط فهم القلب على وجود الخالق بما في الذات المصنوعة من الدلائل التي تجحد . و. و.— فهنالك لا بد ان يعظم مولاه و يقول أشهد ان لا آله الا الله » الخ ثم انتقل الى الكلام عن المبلغ لهذه الكلمة صلى الله عليه وسلم

هـذا نموذج من أول الكتاب وفيه ما هو أشد غموضا منه في نفسه وفي الموضوع الذي دس فيه وأما كلامه في الارواح عند الكلام أسرار الحج الذي جعله [illegible] من قبره الشريف حتى خرجت الى المسجد [illegible] والناس ينظرون والشيخ ابي الهدى غرام باذاعة هذه الدعوى حتى لم يدع الكلام في الدين وأركانه يخلو منها وقد ذكر هـذا الكتاب وجه امتياز الرفاعي على الصحابة وأئمة آل البيت بهـذه المنقبة وذكر أنه ثالث عشر أئمة آل البيت أي انه يلي الامام محمد المهدي المنتظر

فلينظر الناظرون أين مكان الامة بمدارسها ومعلميها من رأي مؤلف هـذا الكتاب ؟ نرى المتخرجين في مدارس الاستانة اكثرهم ماديون ونرى مدارس مصر قريبة منها ونرى بعض الناس يكتب في الصحف اليومية ان دين الاسلام قد تحجر من شدة الجمود فلا يقبله أهل هذا العصر بالصفة التي دون بها في الكتب ثم نجد فينا من يرى أنه ينبغي لنا أن نعلمه من مثل هذا الكتاب فماذا هذا الخلف العظيم



باب الأخبار والآراء

« الشورى في بلاد فارس »

تحدث الناس من زمن غير قريب بأن الشاه مظفر الدين صاحب فارس ميال للاصلاح وان هذا الميل قوي في نفسه بعد سياحته في أوربا . وكان الناس يظنون ان العقبة الكؤود في طريق الاصلاح لتلك البلاد نفوذ العلماء والمجتهدين الذين يعيشون في الحكومة الاستبدادية كالملوك والامراء واعتقادهم كغيرهم ان الاصلاح انما يكون على يد المهدي المنتظر ثم نفوذ الوجهاء والكبراء الذين رسخ في نفوسهم حب الحكومة المستقرة لقوة استبدادها [illegible] ولما جاءت أنباء تلك الديار بأن العلماء والكبراء هم الذين يطلبون الاصلاح ويلحون فيه عجب الناس منهم وأعجبوا بهم وتبين لأهل البصيرة ان القول بوجوب الاجتهاد في الدين والعلم هو النور الذي هدى علماء فارس الى هذه الحادثة الشريفة ولا غرو فلا هداية الا بالعلم الصحيح ولا علم الا بالاجتهاد فالمجتهد أقرب الى الهدى وان ضاقت دائرة اجتهاده والمقلد أحق بالعمى وان اتسعت دائرة تقليده . وأما الاعتقاد بالمهدي فانه لا يصد عن الاصلاح اذا عقل طلابه، يقولون لأن يجدنا المهدي أقوياء صالحين خير من أن يجدنا ضعفاء فاسدين (كما بينا ذلك في كتاب الحكمة الشرعية)

رضي الشاه بأن تكون حكومته قائمة على أساس الشورى الاسلامية فأمر بذلك ونزل عما كان له بمقتضى النظام القديم من الاستبداد فهنأه الملوك بذلك ماعدا السلطان عبد الحميد وفرح عقلاء المسلمين بذلك في جميع البلاد وكان أشدهم سرورا عقلاء العثمانيين . واني أقول الآن في هذا العمل الجليل كلمة هي أكبر من المقالات الضافية والقصائد البليغة وهي ان كتاب الله تعالى جعل أمر المسلمين شورى بينهم فالحكم الفردي الذي يبنى على قاعدة الاستبداد هو الحكم بغير ما أنزل الله فلا يجوز ان يسمى اسلامياً فاذا نفذ حكم الشورى في البلاد

الفارسية على وجهه وبقيت سائر حكومات المسلمين استبدادية وجب علينا ان نقول انه لا يوجد في الارض حكومة اسلامية حقيقية الا الحكومة الفارسية فالواجب علينا تأييدها لئلا يمحى حكم القرآن من الارض وانما الواجب اقامة حكمه لا حكم من يسمي نفسه سنيًّا أو غير سني وهو مخالف له

﴿ جامع ومدرسة دينية في ديروط ﴾

أ كبر آيات الارتقاء البينة في هذه الديار مانراه فيها يوماً بعد يوم من بذل المال في سبيل العلم والدين فهو على قلته في نمو وازدياد يدل على أنه أثر لحياة جديدة في الأمة ولا ارتقاء الا بارتقاء النفوس ولا دليل على هذا الارتقاء الا بذل المال والوقت في سبيل المصلحة العامة وهي سبيل الله التي دعا اليها بدعاية الفطرة السليمة والشريعة القويمة

هزت الأريحية في هذا العام قطب بك قرشي وجيه من كبراء ديروط الوجيه فاختط بجانب داره في بلدة ديروط مسجداً جامعاً ومدرسة دينية لتعليم العلوم الازهرية وكتّاباً تحضيريا لها وأوقف على هذا البناء الذي يشمل ثلاثة المعاهد مئة فدان من أجود أطيانه لينفق من ريعها على المسجد والكتاب وحجرات الطلاب وعلى المعلمين والمتعلمين وشرط ان يكون التعليم فيها تابعاً للازهر في نظامه الا انه شرط ان يعلم فيها فقه المالكية والحنفية فقط ولو أطلق لكان أولى لان حوادث الزمان كثيرا ماتقضي باندراس مذهب واستبدال غيره به وقد سبق الواقف غيره الى مثل هذا الشرط فقضى الزمان على ماشرط ولو شئنا لجئنا بالشواهد على ذلك ولكن المقام ليس بمقام البحث في مثله وانا نعلم ان السبب في هذا الشرط هو إحياء المذهب الذي ينتمي اليه أكثر أهالي تلك الجهة من صعيد مصر وهو مذهب المالكية والمذهب الرسمي لحكومة البلاد وهو مذهب الحنفية

وقد دعا الواقف أكابر علماء الازهر ونظارة المعارف وكثيرا من وجهاء القاهرة ومديرية أسيوط الى الاحتفال بوضع الاساس لهذا البناء فأجاب الدعوة

شيخ الازهر ومفتي الديار المصرية وطائفة من الشيوخ وأمين بك سامي من قبل نظارة المعارف وكان رئيس الاحتفال محمود بك صادق رئيس أقلام الديوان الخديوي مندوباً عن الامير وحضره أيضاً مدير أسيوط ومحمود باشا سليمان وكيل مجلس شورى القوانين وكثيرون. وقد سافر المدعوون من القاهرة في قطار خاص الى ديروط يوم الخميس لثمان خلون من رجب وكان الاحتفال في يوم الجمعة عاشر رجب

بدئ الاحتفال بتلاوة آيات من القرآن الكريم ثم بتلاوة صحيفة الوقف ثم تكلم بعض من حضر وخطبوا بما يناسب المقام فقال أمين بك سامي كلاماً وجيزاً مفيداً ذكر فيه قناطر ديروط التي يتوزع منها الماء على أراضي ثلاث مديريات وشبه بها عمل قطب بك قرشي قائلا ما معناه انه يرجو أن يكون هذا العمل ناشراً للمعارف في أرجاء تلك البلاد كما يوزع تلك القناطر الماء فتكون ديروط معهداً لحياة الارواح وحياة الارض

وقرأ الشيخ سليمان العبد من كبار شيوخ الازهر خطبة قال انه يتكلم بالاصالة عن نفسه وبالنيابة عن شيخ الجامع الازهر ومفتي الديار المصرية وسائر العلماء. وموضوع الخطبة ملخص ماقيل في تفسير قوله تعالى (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) الآية وشرح الحديث الصحيح « من بنى لله مسجدا ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتا في الجنة » ومن ذلك تفسير المفحص والنكتة في اختياره والكلام في كنس المساجد وتنظيفها . ثم أثنى على قطب بك قرشي الثناء الاوفى وختم كلامه بالدعاء للسلطان والخديوي والثناء عليهما بالاطراء المعتاد . وتلاه الشيخ عبد العزيز البشري بخطبة رشيقة العبارة استهلها بالشكوى من كثرة القائلين من المصريين وقلة العاملين وبين انه لا يرجى ان يعود الى مصر مجدها السابق الا اذا كثر العاملون وانتقل من ذلك الى الثناء على قطب بك قرشي ثم السلطان والامير بأسلوبه الشعري والشيخ عبد العزيز هذا ميال الى الادبيات وأسمعني لنفسه شعرا حسنا يدل على مستقبل أحسن منه ان شاء الله تعالى . وخطب محمد أفندي أحمد الصعيدي فتكلم عن تأثير العلم في مدنية اليونان والرومان والعرب وأوربا واليابان ثم انتقل من ذلك الى شرح عمل الواقف

واطرائه ومدح السلطان والخديوي . وكان هناك آخرون قد أعدوا شيئاً للخطابة فحال ضيق الوقت دون تلاوتها . وقد اقترح على صاحب هذه المجلة أن يخطب فارتجل خطاباً وعى كثيراً منه مكاتب المؤيد فكتبه ونشره المؤيد وقد تذكرت بقراءته فيه ما كنت نسيته ومعه بعض ما نسيه المكاتب فأنا أنشر هنا ملخص ذلك وهو

انا نحتفل اليوم بعمل يعد من المصالح العامة فمن مقتضى المقام ان نقول كلمة في المصالح العامة وكلمة في جنس هذا العمل منها وكلمة في الاحتفال به

القيام بالمصالح العامة وبذل المال في سبيلها هو الاساس الذي بني عليه مجد الامم وعزها وبه ساد المسلمون في الزمن الماضي وبه سادت الامم العزيزة الحاضرة وبه تسود الامم في كل زمان ومكان

كثر الكلام في هذه الايام في ضعف المسلمين وتأخر شعوبهم عن جميع شعوب الارض في كل شيء . وكثر القول في علاج هذا الضعف ومهما اختلف العقلاء في طرق العلاج فهم لا يختلفون في أن ارتقاء الامة متوقف على وجود العاملين للمصلحة العامة الذين يبذلون في سبيل الامة من أموالهم وأوقاتهم بل وأرواحهم . انا على ضعفنا في العلم والمال والرأي وجميع مقومات الحياة لايزال فينا من جراثيم الحياة ما يكفي لانعاشنا وإقالة عثارنا اذا وجد فينا الباذلون والعاملون للامة . قال بعض عظماء الاجانب لعظيم من عقلائنا انني قلما ذاكرت الوطنيين في مسألة الا ورأيت فهمهم فيها كفهمنا فالظاهر انه لا فرق بيننا وبينكم الا في شيء واحد وهو كثرة الذين يهتمون بالمصالح العامة فينا وندرتهم فيكم

ان من آيات عناية سلفنا بالمصالح العامة ما بقي لنا من أوقافهم الكثيرة على أعمال البر المختلفة سيما مدارس العلم وان مادرس من تلك الاوقاف وذهبت معالمه وما عاد ملكا للجهل بأصله هو اكثر مما بقي

كيف لا يسبق المسلمون الى بذل المال في كل مصلحة عامة وعمل نافع للامة وحافظ لشرف الملة والاسلام وقد جعل بذل المال في سبيل الله من آيات الايمان بل جعله هو وبذل النفس أعظم الآيات (وههنا تلونا بعض الشواهد على ذلك من القرآن الحكيم) فالبذل في المصالح العامة هو أفضل الاعمال وأشرفها

والباذلون هم سادة الامة وعظماؤها لأن الامة لاترتقي الا بهم لاسيما في هذا الزمان الذي لايقوم فيه عمل عظيم الا بالمال فالبذل فيه يعد بمثابة الفتوح والباذلون في مصاف الفاتحين

لم يدع الاسلام فضيلة من الفضائل المحيية للأمم الا حث عليها وهذا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في صحيح مسلم وغيره من أعظم ما يدعو الى النهوض بالاعمال التي يعم ويستمر نفعها وهو قوله « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة » فالسنة هي الطريقة الحميدة التي يعم نفعها فاذا كان الشارع قد وضع الذين يقومون بالاعمال النافعة للامم موضع الائمة أفلا يجب ان نعرف لهم قدرهم وأن نقتدي بمثل فعلهم . ولنا ان نقول ان محيي السنة بعد موتها وانطماس آثارها يعد كالذي سنها لأول مرة لأن محيي الشيء بعد الموت كموجده من العدم فالسابقون الى حبس الاوقاف على إحياء العلم والدين وغير ذلك من أعمال البر التي [illegible] في هذا الزمان يعدون من واضعي السنن الذين لهم مثل أجر من يعمل بعملهم الى يوم القيامة

أكتفي بهذا القول الوجيز في المشروع من حيث هو مصلحة عامة أما كونه مسجد أو مدرسة دينية فقد رأيت في بعض الجرائد انتقادا عليه لبعض الناس يرى صاحبه أنه كان ينبغي ان يكون مدرسة ابتدائية أهلية فان المساجد كثيرة والتعليم الديني قليل الجدوى وهذا شأن الناس عندنا اليوم ينتقدون كل خير وقلما ينتقدون الشر . لو كان قطب بك أنشأ مسجده في شارع الدرب الاحمر بالقاهرة حيث المساجد تزيد على حاجة السكان ومدرسته بجانب الازهر لكان هذا الانتقاد صوابا ولكنه أسس هذا المعهد العلمي في جهة ليس فيها معهد لتعليم الدين . في الوجه البحري عدة معاهد لتعليم العلوم الدينية ووسائلها من فنون العربية تابعة للازهر كالجامع الأحمدي وجامع المرسي وجامع الدسوقي (وجامع دمياط) وليس في الوجه القبلي معهد لذلك على أن الوجه القبلي أحوج لان أهله أفقر والرحلة أشق عليهم وأعسر . فلم يبق الا ان المنتقد يرى ان التعليم الديني لاحاجة اليه بالمرة ولا أحب أن أصف صاحب هذا الرأي بما أراه يليق

به فحسبه مايراه الناس من قيمة رأيه

ما هو الاثر الذي رآه المنتقد للتعليم الابتدائي في البلاد ففضله به على التعليم الديني ؟ اننا نرى أكثر المتعلمين في المدارس الابتدائية لم يزيدوا أمتهم الا خبالا و بلادهم الا خرابا لأنهم لاهم لهم الا اللذات الحيوانية والحظوظ الشخصية ومهما كان حال طلاب العلوم الدينية رديئا فانه لا يبلغ ما هم عليه من الفساد

التعليم الديني اذا أدي على حقيقته ترقى النفوس وتقل الجرائم والفواحش ويندر سلب الاموال ونهش الاعراض ويكثر الصدق والامانة والمودة في الناس. قد يقال إن هذا التعليم عندنا ناقص ليس له مثل هذه الآثار الجليلة نعم ان التعليم الديني عندنا ناقص ولكن الواجب علينا ان نسعى في تكميل الخير الناقص لا في ازالته من الوجود بالمرة. ليس التعليم الديني هو الناقص وحده فينا. ان كل شيء عندنا ناقص ولو كملنا في شيء من أمور الاجتماع لسهل علينا ان نكمل في غيره لان الكمال يمد بعضه بعضا

لست أعني بما قلت في التعليم الابتدائي انه لا حاجة اليه كيف وهو وسيلة الرقي الى تعليم أعلى منه لا رقي للبلاد بدونه وانما أعني أن فائدته دون فائدة التعليم الديني ومفسدته ان لم يجعل وسيلة للكمال أشد من مفسدة النقص في التعليم الديني كما هو مشاهد. نحن في أشد الحاجة الى تعميم التعليم الابتدائي والسعي في تكميل نقصه بحسن التربية وجعله وسيلة لما فوقه - وفي الوجه القبلي مدارس ابتدائية كثيرة للحكومة وغيرها وفي أبي تيج مدرسة صناعية لسعادة محمود باشا سليمان. فغرضي مما قلت أن أبين ان عمل قطب بك في محله فان التعليم الدنيوي متيسر في الوجه القبلي دون التعليم الديني الذي هو انفع منه بل هو الذي لابد منه

أما الكلام في الاحتفال بهذا العمل النافع فقد سمعت بعض الناس هنا يقولون انه لاحاجة اليه ولا فائدة في مثل هذه الزينة وهذا الاحتفال بمثل هذا المشروع الديني وأنا أعد هذا من قصر النظر ولو بعد نظر المنتقد لرأى ان تأثير هذا الاحتفال في نفخ روح القدوة والمباراة في المصالح العامة أبلغ من تأثير الخطب والمواعظ والشعر. فان احتفالا يجيب الدعوة اليه العلماء الاعلام ومندوب الامير

والحكومة ووجهاء الامة ينظر اليه الناس بعين الرضا ويعد حضور هؤلاء شهادة فعلية بنفعه وشكرا لمن قام به لسان الحال فيهما أفصح من لسان المقال. واذا كان المحتفل ينوي باحتفاله الترغيب في مثل عمله فانه يثاب عليه أكثر مما يثاب المرء على العمل الصالح الخفي وإظهار العمل لا يستلزم الرياء وحب الثناء على أن حب الثناء في الحق لا ينافي الاخلاص في العمل

ثم ختمنا القول بحث الأغنياء على الاعمال النافعة للأمة والدعاء بإصلاح الراعي والرعية وتوفيق الجميع الى القيام بما فيه سعادة الامة

﴿ أخبار نجد ﴾

ذكرنا من قبل ما كان من اعتداء ابن الرشيد وتنكيل ابن سعود به وبقومه وبعد أن قتل صار ولده متعب أميرا مكانه وقد كان من أمر ابن سعود بعد ذلك أن استولى على أكثر ما بيد ابن الرشيد وزحف عليه حتى نزل على ماء يقال له العدوه يبعد من حائل (بلد ابن الرشيد) [illegible] ساعات فاستعد متعب للحصار وضاقت عليه الدنيا لان بلده ليس فيها من القوت ما يغنيها عما يأتيها من العراق فتوسل بابن عون باشا شيخ الزبير بأن يوسط ابن صباح شيخ الكويت في الصلح بينه وبين ابن سعود فذهب شيخ الزبير بنفسه الى الكويت على ما كان بينه وبين ابن صباح منذ سنوات من الشحناء فأكرم ابن صباح وفادته وقبل شفاعته وكتب الى ابن سعود يرغب اليه بأن يرجع عن محاصرة متعب بن الرشيد حتى يتذاكر معه فيما ينبغي فأجاب ابن سعود رغبته ولا ندري على أي شيء تم ذلك الصلح ولعله على ترك ابن الرشيد على ما بقي له هو وبلده وما يحيط به وما يحيط به الا شيء قليل كما علم مما تقدم

أما سير الدولة هناك فانها بعد ما كان من فيضي باشا من ازالة سوء التفاهم بين ابن السعود والدولة قد عينت سامي باشا متصرفا لنجد فأقام في المدينة المنورة ثم ذهب الى نجد منذ أشهر فأقام في الشيحة مع العساكر المنظمة التي هناك (والشيحة قرية من قرى القصيم) وكان متعب ابن الرشيد قد استقبله بالحفاوة قبل وصوله

الى القصيم في قرية سميرة التابعة لحايل وقدم له الهدايا وكان له صلة بأعوانه في المدينة والظاهر أنه أراد أن يستعين به على ابن سعود ويقال انه هوّن عليه شأنه. ثم طلب المتصرف من ابن سعود ان يلاقيه فالتقيا في البكيرة من قرى القصيم وهي التي وقعت فيها الملحمة الفاصلة التي قتل فيها عبد العزيز بن الرشيد. جاء ابن سعود في جيش من البدو والحضر يبلغ نحو خمسة آلاف. وقد طلب المتصرف من ابن سعود ان يترك له القصيم ينزل هو والعسكر في قصر بريده وقصر عنيزه ويكون هو الحاكم للقصيم يجمع المال ويستقل بالحكم. وكان شيوخ القصيم حاضرين هذا الاجتماع مع ابن سعود فأبوا على المتصرف ذلك وسأله ابن سعود هل يحمل أمرا من الدولة بذلك فقال لا. قال ابن سعود انا خاضعون لامر أمير المؤمنين وقد عاهدنا المشير فيضي باشا على السمع والطاعة وأنت تعلم ان بلادنا فقيرة لاغناء فيها لاهلها فنحن لا نرضى بأن نغير شيئا مما نحن عليه فاذا لم يكن معك أمر من السلطان يقضي بذلك فاتركنا وشأننا وإذا كان عندك أمر من السلطان فانا نطلع عليه فاذا كان سهلا علينا قبلناه واذا كان شاقا علينا رفعنا أمرنا الى أمير المؤمنين مسترحمين في رفعه عنا ولا شك في أنه يرحمنا ولا يكلفنا مايشق علينا ولا تحتمله طبيعة بلادنا. ووافقه الشيوخ على ذلك. وقد أثنى المتصرف على متعب بن الرشيد ووصفه بالاخلاص للدولة ففهم ابن سعود انه يعرض به فاستاء وافترقا مغضبين

ومن أخبار تلك البلاد ان أهل البادية أكثروا الاعتداء على العساكر بالاعتداء والنهب والسرقة فلما أعياهم أمرهم خاطب المتصرف ابن سعود في حماية العسكر من البدو وكان ابن سعود لا يزال مغضبا مما قابله به المتصرف من العظمة والغطرسة ومن مدح خصمه في وجهه فأجابه انك أنت والعسكر ماجئتم الا لحمايتنا فكيف تطلبون منا أن نحميكم فلما رأى المتصرف ان جميع بلاد نجد خاضعة لابن سعود وأنه لا يقدر على الاقامة هناك مع مناوأته والتكبر عليه ألان له القول وأرسل اليه الفرس الذي أهداه اليه متعب بن الرشيد هدية وكتب اليه بأنه اذا لم يقبل الفرس فانه يقتله ولا يبقيه عنده فقبله وأمر الاعراب بالكف عن العسكر فأطاعوا وحسنت الحال. وكان ذلك قبل الصلح مع متعب